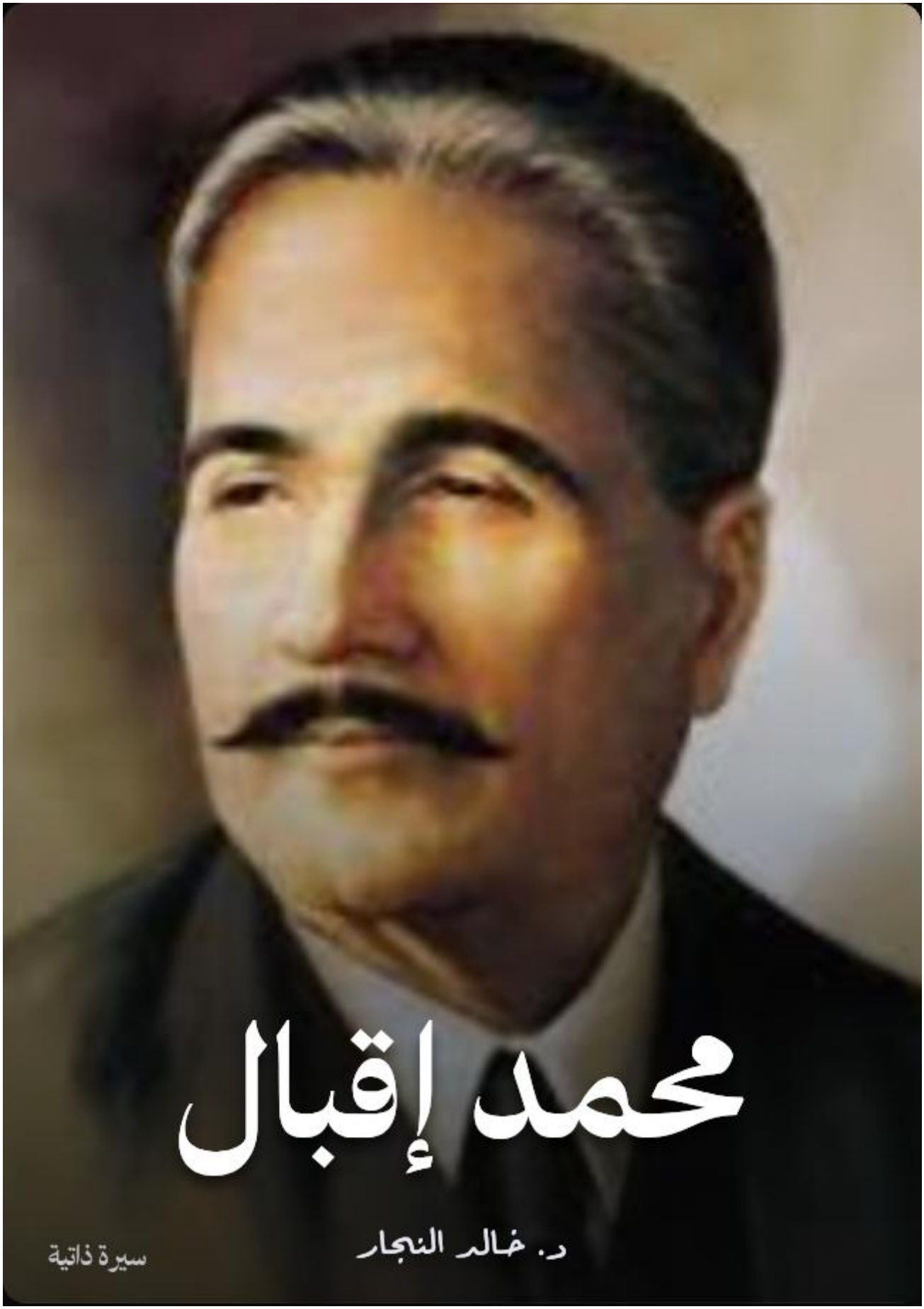
محمد إقبال
د. خالد النجار
سيرة ذاتية

محمد إقبال شاعر الإسلام
(١٢٩٤هـ/١٨٧٧م-١٣٥٦هـ/١٩٣٨م)

د. خالد النجار

من الشخصيات التي لاقت اهتمامًا عظيمًا، وكُتب عنها كتابات كثيرة في العصر الحديث شاعرنا «محمد إقبال» فهو المناضل بالكلمة والرأي والجهد في سبيل إعلاء كلمة الله، وفي سبيل الدعوة الإسلامية، وهو صاحب أكبر مدرسة شعرية في الهند، يقول الشيخ أبو الحسن الندوي: «لا أعرف شخصية ولا مدرسة فكرية في العصر الحديث تناولها الكتاب والمؤلفون والباحثون مثلما تناولوا هذا الشاعر العظيم»، وجاء في مقال في مهرجان إقبال المئوي ـ الذي انعقد في مدينة (لاهور) وتحت إشراف حكومة باكستان: «إن عدد ما صدر عن إقبال من الكتب والرسائل في لغات العالم قد بلغ ألفين، ما بين كتاب ورسالة، هذا عدا ما نُشر عنه من بحوث ومقالات».

في إقليم «البنجاب» بالهند، وُلِد «محمد إقبال» عام (١٢٩٤هـ-١٨٧٧م)، الذي ينتمي إلى أسرة هندوكية من البراهمة في كشمير، وهي جماعة لها شأن كبير في الهند تعبد الأصنام وتقدس التماثيل، لكن الجد الأكبر لمحمد إقبال واسمه (بنديت) تنازل عن كل هذه المكانة، ودخل في دين الإسلام، في عهد السلطان زين العابدين بادشاه (١٤٢١-١٤٧٣م)، وهاجر من كشمير إلى البنجاب ليصبح فردًا عاديًا لا يدَّعي الألوهية كما يفعل البراهمة!! ونجد إقبال نفسه يصف أصله فيقول: «إن جسدي زهرة في حبة كشمير، وقلبي من حرم الحجاز وأنشودتي من شيراز». فجبَّ الإسلامُ ما قبله في فكر وتُراث محمد إقبال، وأنكر بروح المُؤمن الصادق المُوحد عقيدة أسلافِهِ الذين كانوا يعُدُّون أنفسهم آلهةً كونهم من نسلِ البراهِمة وأنّ غيرهم من البشرِ عبيداً لهم ..!!

نشأ إقبال في بيت طاهر لأبويين تقيين؛ فكانت أمه نموذجًا رائعًا للتقوى والورع والالتزام بتعاليم الإسلام، قال عنها يوم موتها: «عندما آتي إلى تراب مرقدك سوف أصيح: من ذا الذي يذكرني في الدعاء في منتصف الليل»، أما والده «محمد نور الدين إقبال» فكان له علم واسع في الدين، زاهدًا، تدمع عيناه خوفًا كلما ذكرت الجنة والنار، وكلما سمع عن يوم الحساب.

النشأة العليمة

كان هذا الوالد التقي هو المعلم الأول لمحمد إقبال، فقد حثَّه على قراءة القرآن وحفظه وتدبره منذ صغره، وكان يقول له كلما رآه يكثر من قراءة القرآن: «إن أردت أن

تفقه القرآن فاقرأه كأنه أنزل عليك». فأخذ إقبال منذ ذلك الحين يتدبر آيات القرآن الكريم، ويتفهم معانيه ويغوص في بحار علومه؛ حتى انطبع نور القرآن في قلبه، وفاض على لسانه، وأصبح دليله ومرشده في جميع خطوات حياته.

وقد ربَّى محمد نور الدين ولده إقبال تربية إسلامية سليمة تعتمد على الكتاب والسنة والقدوة الحسنة، فكان يوقظه صغيرا ليصلى صلاة الفجر كل يوم، وكان يرشده دائمًا لعمل الخير والابتعاد عن الشر...حكى إقبال في كتاباته قصة جليلة عن والده تكشف عن عمق إيمان الأب وعن أسلوب التربية الإسلامية، قال: «جاء سائل، فطرق بابنا بعنف، فضربته بعصا على رأسه، فتناثر ما جمعه، فتألم والدي وسال الدمع من عينيه وقال: (يا بني غدًا تجتمع أمة خير البشر أمام مولاها، ويحشر أهل الملة البيضاء حكماؤها والشهداء والعلماء والعصاة ويأتي هذا السائل المسكين صائحًا شاكيًا، فماذا أقول إذا قال لي النبي ﷺ: إن الله أودعك شابًا مسلمًا، فلم تؤدبه بأدبي، بل لم تستطع أن تجعله إنسانًا، فانظر يا ولدي عتاب النبي الكريم ومقامي في خجلي بين الخوف والرجاء، أتفضح أباك أمام مولاه؟! يا ولدي كن برعمًا في غصن المصطفى، وكن وردة من نسيم ربيعه، وخذ من خلقه الطيب بنصيب)

بدأ إقبال التعليم في طفولته على يد والده، ثم أدخل كُتَّابًا ليتعلم القرآن، ثم انتقل إلى المدرسة وفي السنة الرابعة من تعليمه رأى أبوه أن يتفرغ للعلم الديني، ولكن أحد أصدقاء والده ـ وهو الأستاذ مير حسن ـ لم يوافق، وقال: «هذا الصبي ليس لتعليم المساجد وسيبقي في المدرسة» فدرس اللغة الفارسية والعربية على يد أستاذه (مير حسن) ولفت الأنظار إليه بذكائه الشديد، وأخلاقه الكريمة؛ فاحترمه الجميع؛ زملاؤه وأساتذته، وحصل على الكثير من الجوائز، ونال فرصة الدراسة مجانًا، وبدأ إقبال في كتابة الشعر في هذه المرحلة المبكرة، وشجعه على ذلك أستاذه مير حسن، فكان ينظم الشعر في بداية حياته بالبنجابية، ولكن السيد مير حسن وجهه إلى النظم بلغة الأردو، وكان إقبال يرسل قصائده إلى «ميرزا داغ دهلوي» ـ الشاعر البارز في الشعر الأردو ـ حتى يبدي رأيه فيها، وينصحه بشأنها وينقحها، ولم يمضِ إلا فترة بسيطة حتى قرر «داغ دهلوي» أن أشعار إقبال في غنى تام عن التنقيح.

وفي هذه الفترة ازداد تفكير إقبال في واقع الأمة الإسلامية، وشعر بالألم والحسرة، فهو ينظر إلى المسلمين، فيراهم مستسلمين لأعدائهم، فتسيل الدموع من عينيه، وينشد قائلاً:

مسلمًا إن ترد حياة فيها ما بغير القرآن تأتي الحياة

ومن فوق منبر «جمعية حماية الإسلام» أخذ محمد إقبال يردد قصائده ويلقيها على السامعين، حتى اشتهر وأصبح معروفًا بين الناس، وظل يدافع عن الإسلام والمسلمين، ويدعوهم إلى الكفاح والجهاد في سبيل الله، حتى تمَّ اختياره سكرتيرًا لجمعية حماية الإسلام.

وكانت أول قصيدة له بعنوان: «إنه يتيم» وألقاها في الحفل السنوي لجمعية حماية الإسلام في لاهور، وقد استقبلت القصيدة استقبالاً حسنًا ومست شغاف القلوب، الأمر الذي دعاه إلى أن ينشد في العام التالي وفي الحفل السنوي لنفس الجمعية قصيدته «خطاب يتيم إلى هلال العيد».

والتقى إقبال في كلية الحكومة بـ (لاهور) بأستاذه المستشرق «توماس أرنولد» وهو من كبار علماء الغرب الذين درسوا الإسلام عامة والتصوف خاصة، فكان يرشده ويعينه في الدراسة، وكان توماس يفخر بذكاء تلميذه، ويعتز بصداقته.

وبعد أن أنهى إقبال دراسته الجامعية بـ (لاهور) عُيِّن أستاذًا للتاريخ والفلسفة والسياسة المدنية بالكلية الشرقية بـ (لاهور) ثم أستاذًا للفلسفة واللغة الإنجليزية في الكلية الحكومية التي تخرج فيها، ثم سافر إلى أوروبا سنة (١٣٢٣هـ-١٩٠٥م) حيث نال درجة في الفلسفة من جامعة «كمبردج» ودرجة في القانون من «كلية لندن للعلوم السياسية»، وعمل أستاذًا للغة العربية في جامعة لندن، كما حصل على درجة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة «ميونيخ» بألمانيا، وعاد مرة أخرى إلى لندن، فلم يضيع وقته في العبث واللهو، بل نال شهادة المحاماة من جامعة لندن.

وهناك في بلاد الغرب كان محمد إقبال يدعو إلى دين الإسلام، ويدافع عنه دفاعًا صادقًا من خلال المقالات التي كان ينشرها والقصائد الشعرية التي كان يبدعها، وكان دائمًا يفخر بالإسلام الذي حرر الرؤوس، وطهر النفوس، وأصلح الأرض وحصن

العرض، ولم يعجبه الفسق والكفر الذي يعيش فيه الأوربيون، وقال لهم محذرًا: «يا أهل الغرب إن أرض الله ليست دار تجارة، ولسوف تنتحر حضارتكم بخنجرها؛ لأنها كالعش الذي بني على غصن ضعيف لا قوة له».

كما غادر إقبال لندن إلى القارة الأوروبية وزار عددًا من بلدانها، وكان في كل أسفاره يعمل على نشر الإسلام، وأثر بشعره وأسلوبه في كثير من الأوروبيين ومنهم «موسوليني»؛ حيث وجه له دعوة عقب مشاركته في مؤتمرات المائدة المستديرة في لندن. وكان منظم الزيارة الدكتور «سكاربا»؛ حيث كان معجبًا بفكر إقبال وإيمانه بالإنسان وقدراته، وذهب بالفعل إلي إيطاليا والتقى بموسوليني وألقى محاضرة، في روما يبين فيها الفرق بين مذهب كل من الحضارة الغربية والشيوعية والحضارة الإسلامية، ووضح فيها أسباب تخلف المسلمين، وأن من أهم أسباب هذا التخلف هو البعد عن الدين، وذكر الناس بماضي المسلمين وحضارتهم العريقة، ثم زار إقبال إسبانيا في عام (١٩٣٢م) بعد أن حضر مؤتمر الدائرة المستديرة الثالث، وحرص على مشاهدة المعالم الإسلامية هناك.

العودة إلى الوطن

عاد إقبال إلى لاهور عام (١٩٠٨م)، وبدأ العمل بالمحاماة، يدافع عن المظلومين، وعرف عنه في أثناء عمله بها أنه لا يقبل إلا قضايا الحق، كما عرف عنه أيضًا اقتداره في مهنته، وكان مؤهَّلا لبلوغ أعلى الدرجات فيها، لكنه ترك المحاماة وعمل أستاذًا للفلسفة واللغة الإنجليزية في الكلية الإسلامية في (لاهور).

ثم استقال من منصب الأستاذية، واشتغل بالسياسة، فانتخب عام (١٩٢٦م) في الجمعية التشريعية في «بنجاب» وعمل في حزب الرابطة الإسلامية، ورأس المؤتمر السنوي لها في «إله آباد» سنة (١٩٣٠م)، واشترك إقبال في مؤتمر المائدة المستديرة عام (١٩٣١م-١٩٣٢م) في لندن للنظر في وضع دستور للهند. وقد كان إقبال يحلم بإنشاء دولة إسلامية لمسلمي الهند، وسخر منه الناس حينئذ، ولكن تحققت فكرته بقيام دولة باكستان الإسلامية.

كان إقبال دائمًا ما يعطف على الفقراء والمساكين، يجلس معهم، ويهتم بأمرهم، ويخالطهم في الطعام والشراب. كما كان يدعو المسلمين إلى المشاركة في حركة الحضارة

والتقدم، وينبذ الفكر الذي يكتفي من الدين بالعلاقة بين العبد وربه في صورة العبادات، وكان له موقف أصيل من التصوف، يقوم على رفض التصوف الذي يخالف الكتاب والسنة ويتأثر بفلسفات وثنية، كما رفض التصوف الذي يجعل من المسلم سلبيًّا لا يشارك في خدمة مجتمعه، ومقاومة الظلم والدفاع عن المسلمين وكان يسمى هذا اللون من التصوف بـ «التصوف الأعجمي».

وكان «إقبال» يدعو المسلمين إلى التمسك بدينهم، ثم بالعلم الذي هو السبب في تقدم الأمم، وبذل جهودًا كبيرة في الدعوة إلى وحدة المسلمين تحت راية الجامعة الإسلامية التي تضم المسلمين جميعًا مع اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم.

وأبدع إقبال العديد من الدواوين الشعرية الرائعة منها: (صلصلة الجرس) (رسالة المشرق) (زبور العجم) (ما ينبغي أن نعمل يا أمم الشرق) (هدية الحجاز) ومن أهم مؤلفاته: (تطور الفكر الفلسفي في إيران) و(تجديد التفكير الديني في الإسلام) ومن شعره المترجم إلى العربية:

ملكنا هذه الدنيا قرونا وأخضعها جدود خالدونا
وسطرنا صحائف من ضياء فما نسى الزمان ولا نسينا

الثمرات

ترك لنا إقبال ثروة ضخمة من علمه –رحمه الله– قلما تركها أحد مات في مثل سنه ومن آثاره ـ أو ما وصل إلينا منها:

عشرون كتابًا في مجال الاقتصاد والسياسة والتربية والفلسفة والفكر، وترك أيضًا بعض الكتابات المتفرقة، وبعض الرسائل التي كان يبعث بها إلى أصدقائه أو أمراء الدول، ذلك إلى جانب روائعه من الشعر والتي استحق أن يسمى بسببها (شاعر الإسلام).

فلقد أبدع إقبال العديد من الدواوين الشعرية الرائعة منها:

- «الأسرار والرموز ...أسرار خودي ورموز بيخودي» [لغة فارسية]: وهو صيحة إلى الاعتناء بالذات، وتقويمها، والنهوض بها.
- «رسالة المشرق ... بيام مشرق» [لغة فارسية]: وهو رد على ديوان الشاعر الألماني (جوته)

- «زبور العجم ... زبور عجم» [لغة فارسية]: وهو ديوان من أروع ما كتب إقبال، يتجلى فيه خطاب إقبال الرائع، مناديا الشباب وأوساط الشرق بروح شعره الجديد للنهضة والأخذ بالدين، وأهم قصائده: (حديقة السر الجديدة) وهي قصيدة في الحب الإلهي.

- «ما ينبغي أن نعمل يا أمم الشرق» [لغة فارسية]: وهي منظومات تدعو المسلمين إلى الاتحاد لمقاومة الاستعمار الأجنبي. وهو آخر ما نظمه الشاعر بالفارسية، وهو نَفَسُ أسَفٍ على ما أصاب أمة الإسلام من ضعف وهوان.

- «رسالة الخلود...جاويد نامه» [لغة فارسية]: وهو عبارة عن شعر مثنوي للفلسفة الدينية، وفي هذا الديوان قصة سفر للأفلاك تشبه قصة الشاعر الإيطالي الشهير «دانتي».

- «هدية الحجاز ... أرمغان حجاز» [لغة أردية]: وهو ديوان أغلبه يدور حول موضوعات هامة مثل: الحديث عن الله وعن الرسول ﷺ وعن الأمة وعن العلم الإنساني، وعن رفاق الطريق إلى الله، وأهم قصائد الديوان قصيدة تدور حول إبليس ومعاونيه.

- «صلصلة الجرس... بانك درا» [لغة أردية] ونشر عام (١٩٢٤م)، ويحتوي على حوالي ستين قصيدة وقطعة نظمها في بداية شبابه حتى سفره إلى أوربا، بالإضافة إلى ثلاثين قصيدة نظمها في أوربا، ويشمل قصائد ممتعة عن الحب والطبيعة والأطفال، وتشجيع المسلمين على الحث والتضحية، وأهم قصائد هذا الديوان قصيدته الشهيرة: (طلوع الإسلام).

- «جناح جبريل ...بال جبريل» [لغة أردية]: يحكي فيه الشاعر خواطره الخاصة عن أسفاره إلى فلسطين وإسبانيا، وما كان للمسلمين هنالك من حضارة باذخة أضاءت جنبات العالم حينا..ثم هوت فانطفأت!

- «ضرب الكليم...ضرب كليم» [لغة أردية]: يعالج فيه قضايا العصر الحديث ومشكلاته.

ومن أهم مؤلفاته: (تطور الفكر الفلسفي في إيران) و(تجديد التفكير الديني في الإسلام)

إقبال الشاعر

محمد إقبال لم يكن شاعر بلاطٍ ولا شاعر كأس ولا شاعر غانية، بل كان شعره يدور في فلك الإسلام والدعوة إليه، وسُبل النهوض بالأمة ودعوتها إلى نفضِ غُبار الذل والخنوع، والعودة إلى مجد العزة والكرامة والسُؤدد، لذلك فرّق محمد إقبال بين العبد والحُر، فالعبد في مفهوم محمد إقبال هو الذي يخضعُ لزمانه مهما فسد فلا يُغيّر ساكناً، أمّا الحُر فهو الذي يُخضِعُ زمانه لإرادته، ويُكيّف هذا الزمان في مصلحة الإسلام والمُسلمين، لا يرهبُ في ذلك أحداً:

نسجَ العبدُ عليه كفناً *** من صباحٍ ومساءٍ مُذعناً
وترى الحُر على التُرب علا *** ناسجاً هِمتَّهُ فوق الملا
فِطرةُ العبد حصول الحاصل *** ليس في أفكاره من طائل
في مقامٍ من همودٍ راكدٍ *** نوحُهُ ليلاً وصُبحاً واحد
قُيّد العبد صباحاً ومساءً *** وثوى في فمه لفظ القضاء
وأرى الحُر مُشيراً للقدر *** صوّرت كفّاهُ أحداث القدر

وقف محمد إقبال بقوّة في وُجوه كُل أُولئك المُتخاذلين والمستسلمين، والذين أفتى بعضهم بحُرمة القتال ضد الإنجليز وعلى رأسهم القاديانيين، ونادى كثيراً بأن يكون للمُسلمين استقلالهم ودولتهم المُستقلة بعيداً عن الانضواء تحت حُكم الكفرة، وكثيراً ما حمل شعره دعوة المُسلمين في إرساء دعائم التوحيد والعقيدة وإقامة شرائع الله تعالى التي فرضها على الناس ...

إنما المُسلمُ بالحب قهر *** مُسلمٌ لا حُب فيه قد كفر
غض للحق، وللحق نظر *** وله في الحق نومٌ وسهر
في رُبا التوحيد أرسى العمدا *** وعلى الناس جميعاً شهدا
وعليه يشهدُ الداعي الأمين *** شاهدٌ أصدقُ كُل الشاهدين

وهذا الربيع الشعري الممتد بظلاله وعبيره العاطر دعا الكثيرَ من الأقلام إلى غَرْسِ هذه الزهور في مزهرية عربية !

فسعتْ أقلامُ الكِبار إلى ترجمة مزامير إقبال الرائعة؛ من أمثال العلامة الأديب عبد الوهاب عزام، والذي احتمل عبء النهوض بهذه الأمانة الكبيرة، فكان ذا حظ وافر في ترجمة دواوين عدة لإقبال، ومنهم الشيخ الصاوي شعلان، ومنهم الشيخ العلامة أبو الحسن الندوي، رحمهم الله تعالى.

وتوالت الدراسات الناقِدَةُ والْمُعَلِّقةُ والباحِثَةُ من القارات السِّتِّ، عن إقبال وشِعره وفَنِّه وفِكْره، حتى زادت الدراسات والبحوث والتعليقات والمناقشات حول إقبال وشعره عن أَلْفَيْ بحث ودراسة ورسالة !

ومَنْ تأمّل شِعر إقبال وجد فيه روحا وثّابة تلمع في الحروف، مع أنها قصائد مترجمة، ولا بد أن يكون سَقَطَ دون جسر الترجمة معانٍ كثيرة، أو انتُقِصَتْ، أو حُوِّلتْ عن مسارها، أو صُرِفَتْ عن سياقها، إلا أن الشعر لم يزل بروحه الوهاجة، وجمره المتوقد، مقاومًا ما عساه يتناثر من رماد الترجمة؛ لأنه كان صُبَابَةَ رُوحٍ تعيش هذه المعاني في حَرَكَةِ حياتها !

ولهذا قال شيخُ العربيةِ العلامةُ محمود محمد شاكر رحمه الله تعالى عن إقبال: وكان أعظم ما أدهشني رفضُ إقبال أن يدخل مسجد باريس، ومقالَتُه: «إن هذا المسجد ثمنٌ رَخِيصٌ لتدمير دمشق!»

فلولا أن الرجل– والكلامُ لشاكر–كان يعيش في حقيقةٍ صريحة، وفي ذكرٍ دائِمٍ لا ينقطع لما نزل بنا وطَمّ، لما خطر له هذا الخاطر! وكم من غافلٍ ساهٍ مِنَّا ومن قومنا يعرض له أن يحيا تاريخ نفسه، وتاريخ دينه، بمثل هذه الكلمة؛ ثم لا تراه إلا حيث يكره الله من الذل والضَّعَة والعبودية، والفتنة بما زَيَّن له أعداءُ الله وأعداءُ رسولِه ﷺ.

وهذا كلامُ عليمٍ باللفظ وما يَدُلّ عليه، وما يختزن في أحنائه من أطياف النفس الناطقةِ به.

منارة الساري

عن آراء واتجاهات إقبال الفكرية يقول الدكتور محمد رجب البيومي أستاذ الأدب والنقد وعضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر: لقد كانت إقامته في أوروبا ذات أثر قوي في اتجاهه، لا لأنه اقتنع بما يجري بها من تيارات منحرفة، بل لأنه أحس في أعماقه

بأن ما تدعو إليه من القومية هو الذي فتن أبناء المسلمين ممن يتعلمون بأوروبا، وصرفهم عن عالمية الإسلام وإنسانيته، إذ ان الوطنية الجغرافية هي التي تنخر في الجسم الإسلامي فتجعله أجزاء متخاذلة لا ينهض برسالة، ولابد من فكرة إسلامية شاملة تجعل بلاد الإسلام دارا واحدة ومن المؤسف أن معارضيه من أبناء الدول الإسلامية لم يرتفعوا إلى مستواه لأنهم ذهبوا إلى أوروبا من دون أن يفهموا شيئا عن مبادئ الإسلام وقد سحرهم بريق التقدم الصناعي فظنوا أن أوروبا بهذا التقدم هي المنار الذي يرسل الشعاع وهو ظن بدده إقبال في قصائد ثائرة مثل قصيدته في رثاء صقلية المسلمة حين مر بها، وهتافاته بمجد الحجاز، ورسالة مكة وصرخة الألم أمام قبر رسول الله ﷺ حين وقف أمامه يبكي حاضر العالم الإسلامي متحسرا على ذهاب ماضيه.

ومن أحسن ما قاله في هذا الصدد قصيدته الشهيرة «منارة الساري» التي تحدث فيها الشاعر بلسان الخضر عن مشاكل السياسة الأوروبية وفظائعها الاستعمارية وحذر المسلمين من الوقوع في شراكها وقد ترجم الأستاذ مسعود الندوي بعض أبياتها إلى العربية.

فلسفة القوة

وكانت لشاعرنا الكبير محمد إقبال –كما يقول الدكتور البيومي– فلسفة رائعة أطلق عليها النقاد «فلسفة القوة» وتبرز هذه الفلسفة من مجموعة من الحكم العالية التي تبناها إقبال وتجعل ذات المسلم مصدر قوته، إذا فهم أسرارها، وبهذا الفهم يخضع الطبيعة لمشيئته، إذ لا يكرم في الدنيا من لا يكرم نفسه، ويرى العالمين مبلغ إبائه وسموه، ويقول إقبال ما ترجمته: «اتخذ قوتك الذاتية، واجعلها في مكانة من العلو. وإن ابتغاء مرضاة الله لعبده لن يكون إلا حين يكون قويا غير مستكين».

ثم يرجع إلى أيام العزة في عصر المجاهدين الأولين فيقول: «كلما حانت الصلاة أثناء صليل السيوف، ولت الأمة الحجازية وجهها شطر القبلة، ووقف محمود (السلطان الغزنوي) جوار خادمه في صف واحد، فلم يبق هناك عبد ولا مولى، أصبحوا جميعا لله عبيدا، ولما وصلوا إلى حضرتك صاروا كتلة واحدة».

لقد علم إقبال أن الوظيفة الحكومية التي سعى الإنجليز إلى إهدائها إليه بمرتب ضخم، وسيلة إلى تقييد دعوته إلى الأخوة الإسلامية فرفضها في إباء، وآثر أن يكون مرشدا للناس من دون مقابل، كما ألح المسلمون عليه أن يرشح نفسه في الانتخابات البرلمانية، فقال: لا، أنا منتخب عن الشعب فيما أصدر من مقالات، هذه المقالات التي ناصرت ليبيا وفلسطين والأفغان وسوريا ومصر وكل بلد إسلامي كان يرزح تحت الاحتلال، وكان صوته أقوى الأصوات الداعية لإنشاء الباكستان مسلمة مستقلة، واعترف له بذلك كل من باشر جهوده من الزعماء، وفي طليعتهم القائد الباسل «محمد علي جناح».

أما قضايا الاشتراكية والشيوعية والنازية والفاشية التي سحرت ألباب المخدوعين فقد عكف الباحث الضليع محمد إقبال على دراستها ليصدر حكمه ببهرجتها الزائفة وليحصر الحل الأمثل في هداية الإسلام، وقد قال أحد المستشرقين: «إن تأثير إقبال بقذائفه الصائبة يفوق تأثير جيش مدجج بالسلاح، لأنه مع عاطفته الحارة كان مسلحا بالمنطق الصارم».

الألق الزائف!

محمد إقبال الذي عرف الغرب ومجتمعاته وحضارته جيداً، لم يبهره ذلك الألق الزائف، وكان خلال إقامته في أوربا كثير التحدث والمحاضرة عن الحضارة الإسلامية، ولذلك فإنه إذ يأخذ بطرف من أطراف الحوار بين الغرب والشرق فإنه يملك الأدوات التي تجعله محاوراً عارفاً. يقول قبل عودته إلى الهند:

«يا ساكني ديار الغرب. ليست أرض الله حانوتاً. إن الذي توهمتموه ذهباً خالصاً سترونه زائفاً، وإن حضارتكم ستبعج نفسها بخنجرها؛ إن العش الذي يبنى على غصن دقيق لا يثبت»

الحوار الذي بدأه يوهان فلفانج فون جوته (١٧٤٩ ـ ١٨٣٢) بين الغرب والشرق في ديوانه الغربي ـ الشرقي، المفعم بالرموز والصور الشرقية والأفكار الغربية رد عليه محمد إقبال في ديوانه بيام مشرق (رسالة المشرق). وكان بمثابة استمرار للحوار الثقافي بين الشرق والغرب، وأهمية إقبال لا تقتصر على كونه داعية إلى تجديد الفكر الديني في

الإسلام فحسب، وإنما تعود إلى كونه المحاور الثقافي الذي اطلع على فكر الغرب، ويقف بثبات في الطرف الآخر الشرقي من خط التحاور.

ومحمد إقبال كان المؤهل أكثر من غيره لقيادة هذا الحوار. يقول عنه الشاعر الألماني هيرمان هيسه (١٨٧٧ ـ ١٩٦٨) في تقديمه لترجمة آنا ماري شيمل لمنظومة إقبال الرائعة «جاويد نامة» (رسالة الخلود):

«ينتمي محمد إقبال إلى ثلاثة أحياز روحية هي منابع آثاره العظيمة، وهي: حيز القارة الهندية، وحيز العالم الإسلامي، وحيز الفكر الغربي. إنه كمسلم كشميري الأصل، مثقف بالقرآن وبالفدانتا (كتاب التعاليم الأصلية القديمة لدين الهند الأساسي) وبالتصوف الفارسي العربي، وفي نفس الوقت متأثر بالفلسفة الغربية وقضاياها، عارف ببرجسون ونيتشة، يقودنا في ممرات لولبية ترتفع شيئاً فشيئاً داخل مناطق عالمه الخاص.

لن يجد المسافرون روحياً إلى الشرق في ثقافة إقبال الواسعة، وفي حبه الفياض للتأمل أهم وأعظم جوانب عبقريته، وإنما في قوة حبه، وفي قدرته على التشكيل، سيعجبون به، من أجل لهيب الوجد في قلبه ومن أجل عالم صورِه الشاعري، وسيحبون أعماله باعتبارها الديوان الشرقي الغربي»

كان إقبال محاوراً فلسفياً نداً، وليس وسيطاً فحسب بين ثقافتي الشرق والغرب كما يرى مانويل فيشر، ولم يكن يستطيع احتلال هذه المنزلة لو لم يكن على ثقافة شرقية وإسلامية واسعتين، ولم يكن محاوراً فلسفياً فحسب للغرب، وإنما كان أيضاً محاوراً اجتماعياً وسياسياً فذاً، وهو في حواره مع الغرب الغازي يدين بشدة القوى الاستعمارية التي تنهب خيرات الشعوب وترعى بغزوها المسلح في أراضي غيرها. يقول في كتابه، ما ينبغي أن نعمل يا أمم الشرق:

«دولة ترعى في مراعي دولة أخرى، ودولة تزرع الحَب الذي يحصده غيرها. وتعلمنا الفلسفة أن الخبز يسرق من يد الضعيف».

لا للتمييز العنصري

الحوار الدامي بين الغرب والشرق منذ حرب طروادة، فغزو الإسكندر المقدوني، مروراً بالحروب الصليبية القديمة، والاستعمارية بأشكالها وأساليبها التقليدية والحديثة لا

يمكن أن تغرب عن بال المحاور الشرقي. وكانت أشد نبرات إقبال عنفاً إثر العدوان الإيطالي على إثيوبيا، وكان لا بد أن يدين التمييز العنصري الذي يمارسه الغرب، ويعتبره أكبر عقبة في طريق التعاون العالمي. يقول في إحدى مقالاته:

«الإسلام والتمييز العنصري متناقضان تماماً، وفكرة التفوق العنصري هي أكبر عدو للجنس البشري».

وبالرغم من تحذيره من نشوب حرب عالمية جديدة تفجرها أطماع الإمبريالية الغربية ورغبتها في التوسع فإنه لا بد من النضال المسلح، وذلك هو الحوار الحقيقي المتكافئ والمنتج مع الشيطان، والشيطان هو الغرب الاستعماري. يقول في كتابه حزب كليم (شريعة موسى):

«إذا كانت حرب الشرق غير مقدسة فهل حرب السلاح الغربي هي المقدسة؟»

هكذا يأخذ حواره مع الشيطان طابع القوة والإدانة رافضاً ومعرياً النظم الديمقراطية البورجوازية الزائفة للغرب الاستعماري وموجهاً النقد الشديد لحضارته الزائفة. يقول في المصدر نفسه:

«لقد سلبتم خيام البدو الرحل وهي كل ثرواتهم.

لقد سلبتم التاج والعرش.

وكنتم المطاردين والقتلة بطريقة متمدينة»

ما الذي تغير في منطق وأساليب الإرهاب الاستعماري ومدن الحضارات اليوم تقصف، وشعوب يفرض عليها الحصار والتجويع، وموارد تنهب، واقتصاديات تدمّر وعواصم تحتل.. وكل ذلك يتم باسم الدفاع عن الحرية والديمقراطية ومحاربة الإرهاب؟ يقول إقبال في بانك درا (صوت الجرس):

«إن مارد الاستغلال يرقص في حلة النظام الجمهوري.

وعليك أن تتخيل أنها حسناء الحرية.

المؤسسات، الإصلاحات، الامتيازات، الحقوق.

هي المخدرات الحلوة في الطب الغربي».

تغيير ثوري

في سبيل مواجهة صلبة، وحوار الند للند بين الشرق والغرب يرى إقبال أنه لا بد من تغيير ثوري في المجتمع لم يحدد هويته، أو الطبقة التي تفجره، لكنه يحقق في النهاية المساواة والوحدة والعدل الاجتماعي وتوزيع الموارد، وهذا ما دفعه إلى مناصرة الاشتراكية في بعض جوانبها.

يقول: «إذا كنت حاكماً لدولة إسلامية، فقبل كل شيء، ومنذ البداية، سوف أخلق منها دولة اشتراكية»

لذا نراه يبارك ثورة أكتوبر الاشتراكية برغم نقده لجوانب فكرية فيها. وفي قصيدته «رأس المال والعمل» يدعو الطبقة العاملة في الشرق والغرب إلى الاقتداء بثورة أكتوبر والتحرر من أغلال الرأسمالية، وينادي بقوة ثورية تقضي على النظم الجائرة في المجتمع البشري. يقول في (زبور عجم):

«السيد يحوّل الدم في عروق العمال إلى ياقوت.

صاحب الأرض الظالم يدمِّر ما بذره الفلاح.

الثورة! الثورة! الثورة!».

لهذا فإن إقبال ينتقد مبدأ ثبات النظام الاجتماعي عند «كونت» وحصر الحرية الفردية في مجال محدود.

من أقواله الرائعة

اعتز إقبال بفلسفته الإسلامية وترانيمه الحجازية، وكان يؤمن بأن قوة الحوار المتكافئ تكمن في قوة ووحدة الشعوب الإسلامية المترامية أقطارها فهي كالظباء الشاردة يعوزها التوجه إلى المنبع، يقول داعياً: «اللهم رد الظبي الشارد إلى الكعبة».

والعودة إليها هي عودة معرفية وقد زادته دراسته في الغرب إصراراً على هذه العودة، وزادته حباً للوطن الجميل، والشرق المشرق بشموس الحكمة، والإنسان. وقد نذر نفسه وشعره وحكمته لخدمة الإنسان.

- «أسير عن الوطن الجميل، تجذبني لذة شراب المعرفة. إني شجرة برية ترمق سحاب الجود، لم يحوجني الله إلى بستاني. منيتي أن أكون خادم خلق الله ما حييت، لا

أتمنى عمراً خالداً، منيتي أن أضع جبيني على أقدام والدي. لقد صيّرني الوله محرم أسرار الحب».

هذا مقطع من قصيدة أنشدها الشاعر والفيلسوف الكبير محمد إقبال باللغة الأوردية على قبر السلطان همايون ثاني ملوك الدولة المغولية التي أسسها والده السلطان بابر، وهو في طريقه من محافل الأدب في لاهور حيث أتم دراسته، إلى أوربا ـ جامعة كمبريدج بلندن ـ لدراسة الفلسفة إتباعا لنصيحة أستاذه السير توماس آرنولد وسنه يومئذ اثنتان وثلاثون سنة. وهناك درس فلسفة الأخلاق.

- من أقواله في افتتاح المؤتمر الإسلامي عام (١٩٣٠م): «على كل مسلم عندما يولد ويسمع كلمة لا إله إلا الله أن يقطع على نفسه العهد على إنقاذ الأقصى»
- يخاطب المسلم فيقول له: «اقرأ مرة أخرى في سيرتك الأولى، اقرأ دروس الصدق والعدل والشجاعة، لأنك أنت المنشود؛ لتسود العالم مرة ثانية، أنت تملك العالم بالأخوة وتحكمه بالمحبة، ما الذي محا استبداد (قيصر) وشدة (كسرى)؟! أكانت هناك قوة في العالم تحارب الجبابرة سوى قوة (علي) كرم الله وجهه، وفقر (أبي ذر) وصدق (سليمان) رضي الله عنهم؟!»
- إن المسلم لم يخلق ليندفع مع التيار ويساير الركب البشري حيث اتجه وسار، ولكنه خلق ليوجه العالم والمجتمع والمدنية، ويفرض على البشرية اتجاهه ويملي عليها إرادته، لأنه صاحب الرسالة وصاحب الحق اليقين، ولأنه المسئول عن هذا العالم وسيره واتجاهه، فليس مقامه التقليد والاتباع، إن مقامه مقام الإمامة والقيادة، مقام الإرشاد والتوجيه، مقام الآمر الناهي، ولئن تنكر له الزمان وعصاه المجتمع وانحرف عن الجادة لم يكن له أن يخضع لأوزاره ويسالم الدنيا بل عليه أن يثور عليها وينازلها ويظل في صراع معها وعراك حتى يقضي الله في أمره، إن الخضوع والاستكانة للأحوال القاسرة والأوضاع القاهرة والاعتذار بالقضاء والقدر من شأن الضعفاء والأقزام، أما المؤمن القوي فهو نفسه قضاء الله الغالب وقدره الذي لا يرد.
- إن الحكمة الفلسفية ليست إلا حجابا للحقيقة، وإنها لا تزيد صاحبها إلا بعدا عن صميم الحياة. وإن بحوثها وتدقيقاتها تقضي على روح العمل. هذا (هيجل) الذي

نبالغ في تقديره إن صدفته خالية من اللؤلؤة ونظامه ليس إلا وهما من الأوهام ...إن البشرية تريد أن تعلم كيف تتقن حياتها وكيف تخلد شخصيتها...إن بني آدم يطلبون الثبات ويطلبون دستورا للحياة. ولكن الفلسفة لا تساعدهم في ذلك بل بالعكس من ذلك. إن المؤمن إذا نادى الآفاق بأذانه أشرق العالم واستيقظ الكون.

- أرى التفكير أدركه خمولٌ... ولم تعد العزائمُ في اشتعالِ.
- يقول محمد إقبال في كتابه «أسرار خودي» في افتتاح الكتاب: «رأيت البارحة شيخاً يدور حول المدينة، وقد حمل مشعلاً، كأنه يبحث عن شيء، قلت له: يا سيدي! تبحث عن ماذا؟ قال: مللت معاشرة السباع والدواب، وضقت بها ذرعاً، وخرجت أبحث عن «إنسان» في هذا العالم، لقد ضاق صدري من هؤلاء الكسالى والأقزام الذين أجدهم حولي، فخرجت أبحث عن عملاق من الرجال، وبطل من الأبطال، يملأ عيني برجولته وشخصيته، وبروح نفسي.

قلت له: لقد غرتك نفسك يا هذا! فخرجت تقتنص العنقاء. بالله عليك لا تتعب نفسك، وارجع أدراجك؛ فقد أجهدت نفسي، وأنضيت ركابي، ونقبت في البلاد، فلم أرَ لهذا الكائن عيناً ولا أثراً. قال الشيخ: إليك عني، أيها الرجل! فأحب شيء إلى نفسي، أعزه وجوداً وأبعده منالاً».

شهادات خالدة

لعل أول من قدم إقبال للعالم الإسلامي هو العلامة أبو الحسن الندوي –رحمه الله– في كتابه «روائع إقبال» وقد طبع عدة مرات في دمشق وبيروت والكويت، كما عني بدراسة شعره وفلسفته أعلام الأدب في العالم العربي مثل: طه حسين وعباس محمود العقاد ومحمد حسين هيكل وأحمد حسن الزيات وفتحي رضوان وأحمد زكي. وترجم آثاره إلى العربية عبد الوهاب عزام وحسين مجيب ومحمد سعيد جمال الدين وأميرة نور الدين وطه عبد الباقي ونجيب الكيلاني وغيرهم.

وقد تحدث عن اهتمام العالم العربي بالشاعر إقبال البروفيسور نثار أحمد الفاروقي في مقالته المنشورة في مجلة ثقافة الهند «إقبال في العالم العربي»

● يشير الأستاذ أبو الحسن الندوي ـ وهو ممن عاصروا شاعرنا ـ إلى أسباب الإعجاب بشعر إقبال فيقول: «وهو يرجع في الغالب إلى موافقة الهوى والتعبير عن النفس»، وهذا عن إعجاب الناس بشعره، أما عن أسباب إعجابه هو بشعر إقبال فيقول: «إن أعظم ما حملني على الإعجاب هو الطموح والحب والإيمان، وقد تجلى هذا المزيج الجميل في شعره، وفي رسالته أعظم ما تجلى في شعر معاصر»

● ويقول الشيخ أبو الحسن الندوي أيضا: «ومن دواعي العجب أن كل هذا النجاح حصل لهذا النابغة، وهو لم يتجاوز اثنين وثلاثين عامًا من عمره».

● قال الأمير الحسن بن طلال: «محمد إقبال كان يتوق دائماً إلى روحانية وجمال الإسلام الذي يدعو إلى السلام بين البشر وخدمة الفقراء. وما لم نتعلّم أن نكون صادقين مع أنفسنا ثم أن نكون صادقين مع الآخرين، فإنه سيكون من الصعب الإدراك بأن الشكل الغربي للديمقراطية ليس في حدّ ذاته ترياقاً لجميع الأمراض والمشاكل».

● يقول عنه الأديب والمؤرخ والناقد أحمد حسن الزيات: «نبت جسمه في رياض كشمير، وانبثقت روحه من ضياء مكة، وتألف غناؤه من ألحان شيراز: إنسان لدين الله في العجم، يفسر القرآن بالحكمة، ويصور الإيمان بالشعر، ويدعو إلى حضارة شرقية قوامها الله والروح، وينفّر من حضارة غربية تقدس الإنسان والمادة».

الرحيل

اجتمع المرض على إقبال في السنوات الأخيرة من عمره، فقد ضعف بصره لدرجة أنه لم يستطع التعرف على أصدقائه بسهولة، وكان يعاني من آلام وأزمات شديدة في الحلق؛ مما أدى إلى التهاب حلقه، وأدى بالتالي إلى خفوت صوته، مما اضطره إلى اعتزال مهنة المحاماة، وفكر في أن يقصد فيينا طلبًا للعلاج إلا أن حالاته المادية لم تسمح بذلك، وتدخل صديقه رأس مسعود؛ حيث اقترح على بهوبال الإسلامية أن تمنحه راتبًا شهريًا من أجل أطفاله الذين ما زالوا صغارًا وحدث ذلك بالفعل واستمر الراتب حتى بعد وفاة إقبال.

وكان من أولاده: ابنه آقتاب إقبال المحامي ورزق به من زواجه الأول، وابنه أجاويد . القاضي بمحكمة لاهور العليا، وابنته منيرة باتو وتزوجت في باكستان، وهما من زوجته الثالثة؛ حيث تزوج إقبال ثلاث زوجات ماتت إحداهن هي وابنتها بعد الولادة.

وفي أثناء مرضه هذا واعتزاله المحاماة ماتت زوجته الثالثة في مايو (١٩٣٥م) ثم مات صديقه العزيز رأس مسعود، ومن العجيب أن إقبال وسط هذه المحن والكرب لم يتوقف عن ممارسة نشاطه السياسي، بل ولم يتوقف عن الإبداع وكتابة الشعر.

وفي إبريل سنة (١٩٣٨م) رحل «إقبال» وفاضت روحه التي أجهدها العناء الطويل في سبيل هداية البشر، وعلت شفتيه البسمة الهادئة فرحًا بلقاء ربه. وذاع خبر موته، ففجع الناس فيه، وصعقهم النبأ، وهزمهم الأسى، وعمهم الحزن، وكان يومًا عصيبًا في حياة جماهير الهند عامة، والجماهير المسلمة خاصة، فعطلت المصالح الحكومية، وأغلقت المتاجر أبوابها، واندفع الناس إلى بيته جماعات وفرادى، ونعاه قادة الهند وأدباؤها من المسلمين والهندوس على السواء.

ويقول عنه طاغور . شاعر الهند: «لقد خلفت وفاة إقبال في أدبنا فراغًا أشبه بالجرح المثخن الذي لا يندمل إلا بعد أمد طويل، إن موت شاعر عالمي كإقبال مصيبة تفوق احتمال الهند التي لم ترتفع مكانتها في العالم».

في الثالث والعشرين من نيسان عام (١٩٣٨م) أغمض الموت عيني الشاعر والفيلسوف الثوري الدكتور محمد إقبال، المحاور الفذ الذي جمع في خطابه ما بين الأصالة والمعاصرة، وما بين المعرفة وفلسفة القوة. وبشعور قوي بالانتماء كان المدافع عن إرث الشرق وحضارته في مواجهة استغلال وعنصرية الغرب الاستعماري وفلسفاته النفعية الذرائعية.

كانت الحرب العالمية الثانية التي حذر منها تدق أبواب العالم عندما أغمض الحكيم الشاعر عينيه وهو ينشد:

«مضت الألحان والنغمات

فليكن! عادت أو لم تعد.

نسيم ريح من الحجاز قد يأتي وقد لا يأتي.

هذه نهاية أيام السائل.

قد يعود حكيم آخر.. أو قد لا يعود».

أجل قد يمضي زمن طويل قبل أن يجود الدهر بحكيم آخر مثل إقبال؛ فما كتبه بالأوردية والفارسية والإنكليزية لا تجعله الفيلسوف والشاعر والنجم الأكثر سطوعاً في العالم الآسيوي فحسب، وإنما المحاور الفذ الذي ملك أدوات الحوار المعرفية، ومثَّل الشرق خلال نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين في الحوار الأبدي الدائر بين الشرق والغرب.

عفوا ومعذرة يا إقبال.. فكل يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ[١]

قال عنه السيد أبو الحسن الندوي: «إن إقبال أنبغ عقل أنتجته الثقافة الجديدة، التي ظلت تشتعل وتنتج في العالم الإسلامي من قرن كامل، وأعمق مفكر أوجده الشرق في عصرنا الحاضر»[٢].

وقال عنه الدكتور أحمد مظهر – رئيس قسم اللغة العربية بجامعة البنجاب بـ(لاهور) –: «لم يكن إقبال شاعر مسلمي شبه القارة وحدهم أو شاعر العالم الإسلامي الشرقي وحده، وإنما كان من هؤلاء الآحاد الأفذاذ الذين قلما يجود الزمان بهم، فهو شاعر الإسلام وشاعر المشرق، وشاعر الإنسانية كلها»[٣]

قال عنه الدكتور عبد الوهاب عزام: «محمد إقبال شاعر نابغة، وفيلسوف مبدع، شاع ذكره وانتشر شعره وفلسفته في الهند، ولاسيما بين المسلمين فيها، ثم اتسع صيته وشاعت آراؤه في العالم، ولاسيما بعد أن قامت دوله باكستان العظيمة، وهي حقيقة تخيلها والناس منه يضحكون، ويقظة حلم بها والبائسون منه يسخرون، ولا يزال أنصاره وتلاميذه يكثرون على مر الأيام إعجابا بفلسفته، فلسفة الحياة والأمل والعمل، وإكبارا

---

١ بحث للدكتور سيد بن حسين العفاني ننقله بنصة من كتابه « صفحات مطوية من التاريخ» ج٢ ص ٢٩١-٣٣١ دار ماجد عسيري

٢ «روائع إقبال» لأبي الحسن الندوي ص ٦٨

٣ مقدمه كتاب « إقبال العرب على دراسات إقبال » جمع الدكتور أحمد مظهر ، نقلا عن كتاب « إقبال فكره الديني والفلسفي » لمحمد العربي بوعزيزي-دار الفكر المعاصر- لبنان — دار الفكر سورية

للمفكر المؤمن، والفليسوف الذي لا يأسره الزمان، ولا يخضعه تقلب الحدثان، والشاعر الذي ينفخ الحياة في الموات، وينضر في القفر ألوان النبات، ويشعل الجمر الخامد في الرماد الهامد»[٤]

وقال عنه الدكتور أحمد مظهر: «ولو كان إقبال شاعرا نابغا لكفاه، ولو كان فليسوفا مبدعا لكفاه، ولو كان مصلحا اجتماعيا أو زعيما سياسيا لكفاه، ولكن الله سبحانه وتعالى قد وهبه شخصية جامعة لهذه الأوصاف النبيلة»

واعتبره الدكتور نجيب الكيلاني أحد أولئك القلائل الذين بعثوا النور في سماء الشرق من أمثال الأفغاني!!! ومحمد بن عبد الوهاب وغيرهم[٥]

وقال أيضا: «إن إقبال شاعر الإسلام وفليسوف كبير، وصاحب فكرة إنشاء دولة باكستان، وهو أول أديب مسلم في العصر الحالي، استطاع أن يستلهم الإسلام في وضع فلسفته المشهورة – فلسفة الذات أو (خودي) – وكان شعره وعاء لهذه الفلسفة التي آمن بها ودعا إليها في صدق وحرارة، ولم يحظ شاعر أو فيلسوف مسلم بشهرة تضارع شهرة شاعرنا الكبير في هذا العصر»[٦]

وكانت شخصية إقبال الإصلاحية مثار اهتمام الشيخ الفاضل ابن عاشور فأبرز ما قام به من دور فعال في سبيل الدعوة إلى تأسيس الباكستان من ناحية، وحفظ كيان المجتمع الإسلامي من الذوبان والتلاشي من ناحية أخرى[٧]

وقال عنه محمد علي جناح أول رئيس لباكستان: «كان شاعرا منقطع النظير، طبق صيته الآفاق، وستبقى كلماته حية أبدا. إن مساعدته لأمته وبلده لتضعه في صف أكبر كبراء الهند»

كتب إلى محمد على جناح: «إنه ينبغي على مسلمي الهند من أجل أن يتيسر عليهم حل مشكلاتهم إعادة توزيع البلاد، وإقامة دولة إسلامية – أو أكثر – فيها

---

٤ «فلسفة إقبال وأساسها» للدكتور عبد الوهاب عزام ص ١٣ من كتاب « إقبال العرب على دراسات إقبال »

٥ «إقبال الشاعر الثائر» لنجيب الكيلاني ص ٦ مؤسسة الرسالة

٦ « الإسلامية والمذاهب الإسلامية » لنجيب الكيلاني ص ٤٩

٧ محاضرة ألقاها الشيخ ابن عاشور حول محمد إقبال بتاريخ ١٩٦١/٤/٢٤ تحت إشراف سفارة باكستان

أغلبية ساحقة لهم. أولا: تعتقد أن الوقت لمثل هذا المطلب قد حان بالفعل؟ ولعل هذا هو أقصر رد يمكن أن ترد به على الاشتراكية الإلحادية لجواهر لال نهرو»[٨] .. وتحقق أمله ويكفيه هذا فخرا

وقال الدكتور نظير قيصر الباكستاني: «هو بدون شك شاعر الشرق وحكيم الملة فيلسوف العالم الإسلامي وهو في الوقت نفسه شاعر الكون بأسره»

ولقبه شعراء الهند (ترجمان حقيقت) أي ترجمان الحقائق

وأبرز الأستاذ أحمد حسن الزيات دور إقبال في الدفاع عن المحمدية فقال: «فإذا كان حسان شاعر الرسول فإن إقبالا شاعر الرسالة، وإذا كان لحسان من نازعه شرف الدفاع عن محمد ﷺ فليس لإقبال من ينازعه شرف الدفاع عن المحمدية»[٩]

وقال عنه الدكتور عبد الودود شلبي: «فإذا كان للعرب في عصرهم الحاضر شاعر يلقب بأمير الشعراء هو أحمد شوقي، فقد كان أمير شعراء الإسلام في عصرنا الحاضر من غير منازع هو العلامة الدكتور محمد إقبال»[١٠]

وقال عنه الأستاذ فتحي رضوان: «محمد إقبال رمز لأحسن ما في الحياة الإنسانية»

وذهب طه حسين إلى أن إقبال فرض نفسه على الدنيا وعلى الزمان، وأن المسلمين احتاجوا إلى نحو عشرة قرون ليوجد بينهم ثان لأبي العلاء

وذهب توفيق الحكيم إلى أن «الشاعر محمد إقبال هو مفخرة من مفاخر الشرق في عصوره الحديثة، فهو الخلاصة للمعرفة الكونية النابعة من الشرق، وللمعرفة العقلية الصادرة عن الغرب ... لذلك كان إقبال هو بحق المفكر المجدد في فهم الإسلام والكاشف الصادق لجوهره العظيم»[١١]

---

٨ « رسائل إقبال إلى جناح » ص ١٧-١٨

٩ « تحية لذكرى إقبال » للأستاذ حسن الزيات ص ٢٧ من مقال له ضمن كتاب « إقبال العرب على دراسات إقبال »

١٠ مقال: « محمد إقبال أمير شعراء الإسلام » للدكتور عبد الودود شلبي بمجلة الأزهر ص ٢٠٦ السنة ٥٠ الجزء الأول- مارس ١٩٧٨- الذكرى المئوية لميلاد إقبال

١١ من مقال : « إقبال العظيم » لتوفيق الحكيم ضمن كتاب « محمد إقبال قصائد ودراسات »

ويرى الدكتور طه حسين أن إقبال كان ينظر إلى العرب ويشيد بهم ويثني عليهم، ويتخذهم المثل الأعلى للإنسانية الجديرة بالوجود والحياة والبقاء[١٢]

ولقد عرى إقبال حضارة الغرب ونقدها وهو العليم بها وقال: «يا ساكني ديار الغرب ليست أرض الله حانوتا، إن الذي توهمتموه ذهبا خالصا سترونه زائفا، وإن حضارتكم ستبعج نفسها بخنجرها، إن العش الذي يبنى على غصن غض رقيق لا يثبت»[١٣]

ولقد أشار إقبال إلى أنه اكتوى بنار التعليم الغربي وخاض في دراسته، ولكنه مع ذلك خرج سالما وازداد إيمانا بخلود الإسلام ومبادئه السامية، كما خرج إبراهيم عليه السلام من نار نمرود، فقال: «كسرت ظلم العصر الحاضر، وأبطلت مكره، والتقطت الحبة وأفلت من شبكة الصياد، يشهد الله أني كنت في ذلك مقلدا لإبراهيم، فقد خضت في هذه النار واثقا بنفسي، وخرجت منها سليما محتفظا بشخصيتي»[١٤]

إقبال حبيب إلى النفوس ولكن الحق أحب إلينا منه

قوله في صفات الله عز وجل

الحق أن إقبالا يؤيد مسلك السلف وما أرشد إليه الكتاب والسنة في هذا الباب، ولكنه تأثر كثيرا بتفسير الصوفية وتفسير بعض فلاسفة الغرب في ذلك. مثل كانت وهيجل وهوايتهيد وبرجسون. ومن الصحيح كذلك أنه لم يستند كثيرا إلى أقوال المفسرين والمحدثين والمتكلمين المسلمين في شرح نصوص القرآن والسنة، في محاضراته ومقالاته ودواوينه. ولذلك نجد أن كلامه غامض في غالب الأحيان، ومثقل باستخدام مصطلحات التصوف وفلسفة الغرب في شرح أفكاره.

ومن الصفات التي وصف بها إقبال الله سبحانه وتعالى، أنه الذات الحقيقية والنهائية والأولى وواجبة الوجود، وهو الذات العليا والنفس العظمى والفرد الكامل الأعظم. وهو

---

١٢ مقال بعنوان « إقبال فرض نفسه على الدنيا والزمان » لطه حسين ص ٣ مجلة الوعي الباكستانية العدد ٣١- السنة ٦ مايو ١٩٥٨م

١٣ « فلسفة إقبال » للدكتور حسون ص ١٢ ، و « إقبال الشاعر الثائر » لنجيب الكيلاني ص ٣٢-٣٣

١٤ « روائع إقبال » ص ٧٨

الإرادة الخالقة والقوة المحركة والنور الأصلي والأزلي الأحد، الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد[١٥]

ويقول: « ... صفة العلم وصفة الخلق أمر واحد»[١٦]

وانظر إلى كلامه عن العلم والقدرة. والواقع أن إقبالا قد حار في كلامه هذا حيرة الفلاسفة والمتصوفة

وحدة الوجود ووحدة الشهود

لقد تضاربت آراء دارسي فكر إقبال حول موقفه من فكرة وحدة الوجود. فمنهم من رأى أنه ظل معتقدا بها طوال حياته، ومن بين من قال بذلك تلميذ إقبال وشارح دواوينه الأستاذ يوسف سليم جشتي، ومنهم من رأى أنه كان يعتقد بها في أول عهده، ثم رفضها ونددبها حين رتب منظومة «الأسرار والرموز» بعد رجوعه من أوروبا، وذلك رأي معظم الكتاب عن فكر إقبال ومن بين من رأى ذلك الدكتور سيد عبد الله وخليفة عبد الحكيم والدكتور ظ. الأنصاري[١٧]. ومنهم من رأى أن إقبالا لم يكن يعتقد بها في أول عهده ولكن اعتنقها خلال الفترة الأخيرة من حياته. والقائل بذلك الأستاذ ميكش أكبر آبادي في كتابه «نقد إقبال»[١٨]، ويرى الأستاذ جكن نات آزاد الهندوكي أن إقبالا ظل يعتقد بتلك الفكرة طيلة حياته، ما عدا فترة ما بين رجوعه من أوروبا في عام (١٩٠٨م)، وبين نشر ديوانه «رسالة المشرق»[١٩]

ويرى السيد نذير نيازي صاحب إقبال لمدة طويلة ومترجم محاضراته «تجديد التفكير الديني» إلى الأردية تحت إشراف إقبال نفسه، أنه لم يعتنق تلك الفكرة ليوم واحد لا في أول عهده ولا في آخره، غير أنه وجد بيئة صوفية في أسرة نشأ بها، فسمع

---

١٥ « تجديد الفكر الديني في الإسلام » لمحمد إقبال ص ٧٥ و « محمد إقبال موقفه من الحضارة الغربية » لخليل الرحمن عبد الرحمن ص ١٧٢-١٧٣ دار حراء

١٦ « تجديد الفكر الديني في الإسلام » لمحمد إقبال ص ٩١-٩٤

١٧ انظر مجلة « نقوش » لاهور، العدد ١٢١ص ١٢٢-١٢٥، و «إقبال كي تلاش » للدكتورظ. الأنصاري، ص ٩-٢٦-١٢٠، و « فكر إقبال » للدكتور خليفة عبد الحكيم

١٨ انظر نقد إقبال للأستاذ ميكش أكبر آبادي، الناشر آئينة أدب، لاهور ط ١٩٧٠ ص ٣٠٦-٣٠٧

١٩ انظر: « إقبال أوراس كاعهد » للأستاذ جكن نات آزاد، الناشر مكتبة لاهور، ط ١٩٧٧ ص ٨٣-٨٤

شيئا عنها وتأثر بها تأثرا ما، كما أنه معظم الشعر الأردي والفارسي مصطبغا بتلك الفكرة، فنسمع صداها في بعض أبيات نظمها إقبال خلال الفترة الأولى لشعره، بينما نجد أن أستاذه المولوي السيد مير حسن كان معروفا باتجاهاته الوهابية وكان يتهم أحيانا بالطبيعية. ففكرة وحدة الوجود لم تصل إلى مستوى العقيدة في فكر إقبال وشعره في يوم من الأيام[٢٠]

ورأى السيد نذير نيازي هذا يبدو لنا أقرب للصواب، فإن إقبالا كان متأثرا بحركة السيد المجدد السرهندي لتطهير التصوف من الأفكار غير الإسلامية أو العجمية، على ما يسميه إقبال. والسيد السرهندي قد رد ردا عنيفا على أفكار محي بن عربي الأندلسي، رأس القائلين بوحدة الوجود. فكان من قوله ضمن بعض رسائله: إن ابن عربي قد زلقت رجله في أثناء الطريق، وانخدع بما يعتري السالك من الأحوال في سفره الروحي ويتراءى له من وحدة هذا الوجود فلو تقدم خطوة لشاهد أن لا وحدة بين وجود العبد والمعبود، وأن الله هو الوراء ثم وراء الوراء ثم وراء الوراء. وقد سمى السيد المجدد هذه الوحدة التي تتراءى أثناء سلوكه بمرحلة وحدة الشهود لا بوحدة الوجود في الحقيقة. وكذلك جاء ضمن بعض رسائله: «إننا نحتاج إلى النصوص لا إلى الفصوص»[٢١]

وانظر قوله ضمن مقدمة «الأسرار والرموز»[٢٢]

رأي إقبال في النبوة

محبة إقبال للرسول ﷺ ومعنى حبه لديه اتباع سنته واقتفاء أثره.

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي عن حب إقبال للرسول ﷺ: «لقد عاش الدكتور محمد إقبال شاعر الإسلام وفيلسوف العصر – مدة حياته– في حب النبي ﷺ، والأشواق إلى مدينته، وتغنى بهما في شعره الخالد. وقد طفح الكأس في آخر حياته، فكان كلما ذكرت المدينة فاضت عيناه وانهمرت الدموع. ولم يقدر له الحج وزيارة

---

٢٠ انظر «دانأي راز» للسيد نذير نيازي ص ٤٢٨-٤٥١

٢١ انظر « تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند » لمسعود عالم الندوي ص ١١٢-١١٣ ويقصد السيد المجدد بالنصوص نصوص الكتاب والسنة وبالفصوص كتاب (فصوص الحكم) لابن عربي

٢٢ مقدمة «الأسرار والرموز» لإقبال تعريب الدكتور عزام ضمن كتابه «محمد إقبال» ص ٨٦-٨٨

الرسول ﷺ، بجسمه الضعيف، الذي كان من زمان يعاني الأمراض والأسقام. ولكنه رحل إلى الحجاز بخياله القوي، وشعره الخصب العذب، وقلبه الولوع الحنون، وحلق في أجواء الحجاز وتحدث إلى الرسول الأعظم ﷺ، بما شاء قلبه وحبه وإخلاصه ووفائه[٢٣] وتحدث إليه عن نفسه، وعن عصره وعن أمته وعن مجتمعه. وقد فاضت في هذا الحديث قريحة الشاعر، وانفجرت المعاني والحقائق التي كان الشاعر يغالبها ويمسك بزمامها وينتظر فرصة إطلاقها، وقد رأى أن فرصتها قد حانت.. فكان شعره في النبي الكريم، صلوات الله وسلامه عليه من أبلغ أشعاره وأقواها، وكان حشاشة نفسة وعصارة عمله وتجاربه، وكان تصويرا لعصره وتقريرا عن أمته وتعبيرا عن عواطفه»[٢٤]

وفي معنى حاجة المسلمين إلى التمسك بتعاليم السنة، يقول إقبال في «رموز اللاذاتية» تحت عنوان «الرسالة»:

بالرسالات بدا تكويننا — شرعنا منها ومنها ديننا
ذاك من «يهدي إليه من يريد» — حلقة منها حوالينا يشيد
خلقه ذات محيط يعجز — ساحة البطحاء فيها مركز
نحن مما جمعتنا أمة — أرسلت للناس فيها رحمة
موجنا في بحرنا متصل — موجة من موجة لا تفصل
أمة في حرز سور الحرم — في حفاظ مثل «أسد الأجم»
نظرة الصديق رب الفهم — وإلى القلب من الرب أحب
فالنبي الروح فينا والعصب — شرعه حبل وريد الأمة[٢٥]

---

٢٣ يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي: ليس هذا الحديث من الاستعانة في شيء. إنما هو أسلوب من أساليب الشعر والحب استعمله شعراء إيران والهند قديما وحديثا

٢٤ «روائع إقبال » للأستاذ أبي الحسن علي الندوي ص ١٧٠-١٧١

٢٥ ترجمة «الأسرار والرموز» للدكتور عزام ص ٩٦ و «يهدي إليه من يريد» إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وكذلك أنزلناه آيات بينات وأن الله يهدي من يريد﴾ [الحج: ١٦] و «أسد الأجم» إشارة إلى بيت البردة

أحل أمته في حرز ملته — كالليث حل مع الأشبال في أجم

وأما ما قاله إقبال من أن النبي قد يكون أحب إلى قلوبنا من الرب تعالى فلعل قصده به أن النبي أقرب إلى مداركنا ومشاعرنا لكونه من جنسنا فالقلب يعشق إليه بسهوله وبأدنى معرفة به بينما الله سبحانه وتعالى أحب إلى المؤمنين من

ويقول، تحت عنوان «إن حسن سيرة الأمة المسلمة من التأدب بالآداب المحمدية»:

أنت كمّ في فروع المصطفى فتفتح في ربيع المصطفى
فنظرة من روضه فالتمس وسنا من خلقه فاقتبس
مرشد الروم الذي قطرته قد حوت بحرا، سمت قولته:
«لا تجدّ الحبل من خير البشر لا تقل عندي فنون وبصر»
فطرة المسلم طرا رأفة قوله والفعل كل رحمة
لعظيم الخلق من شق القمر رحمة عمت ونور للبشر
لست من معشرنا فاعتزل إن تكن بعيد المنزل[٢٦]

جهوده في الرد على القاديانية في مسألة ختم النبوة

قام إقبال ببزل جهود جبارة في الرد على القاديانية القائلة بأن سلسلة النبوة لم تنته برسالة محمد ﷺ ففي مايو (١٩٣٥م) نشر إقبال مقالة في الرد على القاديانية، تحت عنوان «القاديانية والمسلمون» فقام الزعيم الهندوكي الباندیت جواهرلال نهرو، يرد عليه مدافعا عن القاديانية فكتب إقبال عدة مقالات بالإنجليزية في جواب نهرو، دافع فيها عن مسألة ختم النبوة، برسالة محمد ﷺ ببالغ حماسة وحكمة[٢٧]

يقول الأستاذ مسعود عالم الندوي عن جهاد إقبال في رد القاديانية:

«ولصاحبنا إقبال مأثرة جميلة أخرى في باب الدعوة الدينية والدفاع عن حرمة الدين المبين، لا تنسى أبد الدهر. ولو لم يكن من أعماله الجليلة الخالدة إلا هذه المأثرة العظيمة لكفته فخرا في الدنيا وذخرا في الآخرة، ألا وهو موقفه الجليل المشهود بإزاء النحلة القاديانية الضالة المضلة، في السنين الأخيرة من حياته...إن الزعيم جواهرلال نهرو كتب مقالتين .. ينكر فيهما على الجمعيات المسلمة الدينية حركتها ضد القاديانية

كل شيء فقد قال تعالى: ﴿والذين آمنوا أشد حبا لله﴾ [البقرة:١٦٥] فيمكن أن يكون الرسول أحب عاطفيا لا عقليا وواقعيا

٢٦ ترجمة «الأسرار والرموز» للدكتور عزام ص ١١٩-١٢٠ ونسب شق القمر إلى الرسول ﷺ مجازا والمعنى الحقيقي أن الله تعالى شق القمر معجزة لرسوله ﷺ

٢٧ «سيرة إقبال » للفاروقي ص ٤٢٦-٤٢٨

ويؤيد جانب القاديانية وفي مثل هذه الأحوال انبرى المسلم المؤمن محمد إقبال للدفاع عن حظيرة الإسلام ورد كيد القاديانية في نحورها. وتطهير الدين المبين من أرجاسها وأدناسها. فنشر تصريحات عديدة في الصحف، بين فيها موقف الإسلام بإزاء هذه النحلة المارقة التي تؤمن بنبوة الغلام القادياني الكذاب، وكشف عن عورات القاديانيين، وأماط اللثام عن خدماتهم للاستعمار البريطاني وتمسكهم بأذياله»[٢٨]

مناقشة رأي إقبال في النبوة

إذا نظرنا في تفسير إقبال للنبوة نظرة دقيقة، وجدنا أنه أخطأ في عديد من الأمور منها:

أولا: أن النبوة ليست ضربا من الوعي الصوفي، كما توهم إقبال، فإنه يقول في تعريف النبوة: «إنها ضرب من الوعي الصوفي ينزع ما حصله النبي في مقام الشهود إلى مجاوزة حدوده وتلمس كل سانحة لتوجيه قوى الحياة الجمعية توجيها جديدا، وتشكيلها في صورة مستحدثة»[٢٩]

وهذا القول منه ليس بصواب فإن الله تعالى يختار النبي من عباده ويصطفيه من بينهم حسب إرادته وحكمته فإنه تعالى أعلم حيث يجعل رسالته. فالنبوة موهبة ومكرمة وتكليف من الله تعالى يهبها لمن يشاء من عباده ويحملها من يختاره منهم، على خلاف أمر الوعي الصوفي فإنه يحصل عليه بممارسة الرياضة الصوفية كل من يجتهد في الحصول عليه. فالنبوة مرتبة لا يمكن أن يتشرف بها أحد من اختياره وكسبه ورياضته، والوعي الصوفي يمكن الحصول عليه بالكسب والاجتهاد، وإذا كانت الولاية بالمصطلح الصوفي، ليس من الضروري الحصول عليها بالكسب والاجتهاد، مع أنها أدنى رتبة من النبوة، فليس كل صوفي وليا، كما أن ليس كل ولي صوفيا، فكيف النبوة؟ ويوهم تفسير إقبال للنبوة المبين في «تجديد الفكر الديني» أنه يمكن التشرف بها بالكسب والاجتهاد، وذلك خطأ واضح، فإن الأنبياء قد وهبوا النبوة مفاجأة، مثل قصة سيدنا موسى عليه السلام، فإنه لم يكن على معرفة أن الله تعالى قد اختاره للنبوة حتى لحظة أن رأى نارا في طور

---

٢٨ «تاريخ الدعوة الإسلامية بالهند» لمسعود عالم الندوي ص ٢١٩-٢٢٠ بتصرف

٢٩ « تجديد الفكر الديني » ص ١٤٣

سيناء، وكلمه الله تعالى وأخبره باختياره نبيا، وكذلك سيدنا محمد ﷺ لم يكن على معرفة من أنه سوق يُختار للنبوة حتى إذا نزل عليه الروح الأمين في جبل حراء، وألقى إليه رسالة الله تعالى، رجع إلى البيت وهو خائف، يقول: زملوني ودثروني. فلو كان الوحي نوعا من وعي يتحصل بقطع المدارج الصوفية وسلوك المناهج الروحية المعتادة لدى الصوفية، لما حدثت المفاجأة عند نزول الوحي في أول الأمر، على سيدنا محمد ﷺ وسيدنا موسى عليه السلام. ففي هذا التفسير انخدع إقبال بآراء الصوفية الذين يفسرون النبوة والولاية بتفاسير ليس لها برهان منزل من الله تعالى، حتى قد اغتر بعضهم إلى حد أنه قال: إننا معشر الصوفية أفضل من الأنبياء، لأن اتصالنا بالله تعالى مباشر واتصال الأنبياء به تعالى يحتاج إلى واسطة وهي الملائكة.

ثانيا: إن إقبالا لم يشرح في تفسيره كيفية نزول الوحي بواسطة الملائكة والروح الأمين، فإن الروح الأمين هو الذي يقوم بنقل الوحي إلى الأنبياء، ولم يشر إقبال في تفسيره إلى هذه المسألة مطلقا.

ثالثا: يوهم تفسير إقبال كأن النبوة عمل خاص للنبي وله فيه رغباته وتصرفاته وليس ذلك حقا، فإن النبي مأمور بأوامر الله تعالى، فإنه تعالى يربيه للتجرد إليه والعمل من أجل مرضاته حتى لم تعد للنبي رغبة ذاتية، ولو للهداية، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]

وقال تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠] ﷺ

وقال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران:١٢٨]

والفارق الذي أوضحه إقبال بين عمل الصوفي وعمل النبي من أن عمل الصوفي يبقى فرديا، وعمل الرسول ينتقل إلى المجتمع، صحيح ولكن عمل الرسول ليس من عند نفسه، فإن الرسول ﷺ عاد خائفا حين نزل عليه الوحي في بدء الأمر، وقال: دثروني وزملوني ولم يقل: إني مارست هذه التجربة، فتعالوا أيها الناس وأوجدوها في حياتكم.

رابعا: لا شك في أن للعقل دورا بالغا في بناء المجتمع وتوجيهه وتطوير العلوم والتجارب ولكن له مجال محدد وليس في استطاعته إقامة ميزان ثابت يميز به الحق من

الباطل. فدور العقل في الإسلام مقيد بالوحي والأمة المسلمة مسئولة أن تحمل رسالة الإسلام في ضوء ذلك الوحي المنزل، وليس العقل في المنهج الإسلامي حرا طليقا في تصرفاته يحرم ما يشاء ويحلل ما يشاء كما يوهم تفسير إقبال هذا.

والواقع أن إقبالا متأثر ومنخدع في رأيه أن العقل حل محل الوحي في العصر الحاضر، بأفكار الغربيين. والواقع كذلك أن هذا الرأي لا يمثل وجهة نظره الشاملة في هذا الشأن، فقد أعطى القرآن الكريم حقه والسنة النبوية حقها في أكثر من موضع من دواوينه ومقالاته، فقال – مثلا– ضمن منظومة «رموز اللاذاتية»:

«إن دين محمد المصطفى ﷺ هو دين الحياة وشرعة شرح لنظام الحياة. وإذا فقدت الأمة أسوة الرسول تفقد وجودها وبقاءها».

وقال كذلك تحت عنوان «إن الأمة لا تنتظم بدون شريعة وشريعة الأمة المحمدية القرآن»

لكتاب الله حق، فاقرأن كل ما تبغيه، منه فاطلبن

وقال

وحدة الشرع حياة الأمة فمن القرآن روح الملة
نحن طين وهو قلب لا جرم هو «حبل الله» من شاء اعتصم
فانتظم في سلكه كالدرر أو غبارا في الرياح انتثر[٣٠]

يرى إقبال أن النبوة ضرب من الوعي الصوفي يستعمل فيه النبي ما حصله في مقام الشهود في سبيل توجيه قوى الحياة توجيها جديدا. ورغبة النبي في أن يرى رياضته الدينية تتحول إلى قوى عالمية حية رغبة تعلو على كل شيء. واختبارها ليس إلا اختبار هذه القوى الحية التي أوجدها النبي في إطار إنشائي بالميزان التاريخي، فعندما يتغلغل النبي فيما يواجهه من أمور مستعصية وينفذ إلى أعماقها تتجلى له حينئذ نفسه، فيعرفها ويزيح القناع عنها فتراها أعين التاريخ. ولهذا كان من بين ما يحكم به على قيمة دعوة النبي

٣٠ ترجمة «الأسرار والرموز» للدكتور عبد الوهاب عزام، و «محمد إقبال مفكرا إسلاميا» لمحمد الكتاني ص ٧١-٧٣ و « تجديد الفكر الديني في الإسلام » لإقبال ص ١٤٢-١٤٤، و « محمد إقبال وموقفه من الحضارة الغربية » لخليل الرحمن عبد الرحمن ص ١٨٢-١٨٩

ورسالته، البحث في نوع البطولة الإنسانية التي ابتدعها، والفحص عن العالم الثقافي الذي انبعث عن روح دعوته.

ثم يوضح إقبال طبيعة الوحي باعتباره الصلة القائمة بين الله والنبي، ويرى أنه ظاهرة عامة من ظواهر الوجود. فالظواهر البيولوجية والفسيولوجية في عالمي الحيوان والنبات إنما تستمد اتجاهها من الإلهام الذي يوجه الحياة كلها في اتجاهها الخلاق. والقرآن نفسه يستعمل الوحي لعوالم مختلفة، كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل:٦٨]

وهكذا يعتبر إقبال النبوة ظاهرة طبيعية أملتها المراحل التطورية للبشرية. ففي طفولة البشرية كانت القوى الروحانية تتطور أحيانا إلى ذروة الوحي النبوي لتوجيه الناس وتحقيق مصالحهم. فالنبوة التي هي ثمرة القوى الروحانية الفطرية، كانت وسيلة للاقتصاد في التفكير وتمييز النافع من الضار، غير أنه بنمو ملكة العقل والتفكير لدى الإنسان أخذت الحياة نفسها تعمل لكبت تلك القوى التي لا تعتمد في معارفها على التفكير الاستدلالي. وهكذا عرفت الإنسانية في تاريخها طورين عظيمين:

١–طورا اعتمدت فيه على قواها الروحية، ممثلة في الوحي.

٢–طورا نسخ ذلك الطور السابق وتميز باعتمادها على القوى العقلية المنظمة.

ورسول الإسلام ﷺ صلة وصل بين الطورين أو العالمين، عالم الفطرة وعالم العقل. فهو من عالم الفطرة باعتبار مصدر رسالته وهو الوحي، وهو من العالم الحديث، عالم العقل، باعتبار مضمون رسالته يعني ما احتوته رسالة الإسلام والنص القرآني من دعوة صريحة إلى استعمال العقل، وحث على النظر في الكون، بحيث اعتبرت هذه الدعوة فريضة دينية قائمة.

وهكذا ينص إقبال على أن النبوة في الإسلام تبلغ كمالها الأخير في إدراك الحاجة إلى إلغاء النبوة نفسها، وهو أمر ينطوي على إدراكها العميق لاستحالة بقاء الوجود معتمدا إلى الأبد على زمام يقاد منه، وأن الإنسان لكي يحصل كمال معرفته لنفسه، ينبغي أن يترك ليعتمد في النهاية على وسائله هو، وأن مخاطبة القرآن للعقل وحثه على

التجربة على الدوام، وإصراره على أن النظر في الكون والوقوف على أخبار الأولين من مصادر المعرفة الإنسانية، كل ذلك صور مختلفة لفكرة انتهاء النبوة[٣١]

قضية الجبر والقدر في فكر إقبال

في مسألة كون الإنسان مختارا أو مجبرا في إرادته وأعماله، يذهب إقبال إلى أن الله تعالى قد منح الإنسان حرية واسعة لإبراز إمكانياته واختيار أعماله ومراداته. وعمل القضاء والقدر ليس من خارج الأشياء أو النفوس، بل من داخل إمكانياتها واستعداداتها، ويؤثر القدر تأثيره داخل حدود الزمان والمكان. يقول إقبال في «تجديد الفكر الديني»:

«الزمان باعتباره كلا مركبا، هو الذي يسميه القرآن (التقدير) وهي كلمة أسيء فهم معناها كثيرا في كل من العالم الإسلامي وفي خارجه. والتقدير هو الزمان عندما ننظر إليه على أنه سابق على وقوع إمكانياته: هو الزمان الخالص من شباك تتابع العلة والمعلول...والزمان بوصفه تقديرا هو ماهية الأشياء ذاتها، كما جاء في القرآن ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩]، فتقدير شيء إذن ليس قضاء غاشما يؤثر في الأشياء من خارج، ولكنه القوة الكامنة التي تحقق وجود الشيء، وممكناته التي تقبل التحقق، والتي تكمن في أعماق طبيعته وتحقق وجودها في الخارج بالتالي، دون أي إحساس بإكراه من وسيط خارجي»[٣٢]

ويرى إقبال كذلك أن قوة الاستبصار والسيطرة المدبرة الملحوظتين في نشاط النفس تكشفان عن حقيقة الحرية التي منحها الله للإنسان، بعد أن هيأه لتحمل مسئوليته من تلقاء نفسه في اختيار تشكيل مصيره وتحديد سلوكه مستدلا بمثل قوله تعالى: ﴿ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف:٢٩] وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾[الإسراء:٧]

---

٣١ انظر « محمد إقبال مفكرا إسلاميا » لمحمد الكتاني ص ١٧١-١٧٣، و «تجديد الفكر الديني في الإسلام » ص ١٤٢-١٤٤

٣٢ «محمد إقبال مفكرا إسلاميا» لمحمد الكتاني ص ١٧١-١٧٣و « تجديد الفكر الديني في الإسلام » لإقبال ص ١٤٢-١٤٤

وإذا كان من غير الممكن إنكار مبدأ القضاء والقدر السابق لحرية الإنسان، كما يقرره القرآن، فإن إقبالا يرى أن معنى هذا القدر أو التقدير يعطي للنفس الإنسانية قوة عظيمة على مواجهة الضرورات التي لا مفر منها. والقرآن نفسه – في رأي إقبال– يقر بحقيقة من حقائق النفس الإنسانية، وهي الارتفاع والانخفاض في قدرة الإنسان على اختيار أفعاله.

وحاول إقبال أن يفسر ذلك على ضوء نظرية «اشبنجلر» القائلة بأن الإنسان يمارس حياته بطريقتين:

طريقة عقليه تقوم على فهم الكون باعتباره نظاما ثابتا من علة ومعلول.

وطريقة حيوية تقوم على الاستجابة المطلقة لضرورات الواقع الذي يعكس الزمان المتجدد بما ينطوي عليه من خلق وإبداع.

وهذه الطريقة الأخيرة هي التي يواجه بها المسلم الحياة، مفعما بالإيمان بضرورة ما يمليه التجدد الزماني الخلاق، وتبلغ نزعة الإيمان لديه بهذه الضرورة درجة من الخصب والعمق بحيث تفني إرادته في إدارة الله المطلقة (القضاء والقدر) فتكتسب من ذلك حيوية وصلابة.

أما النزعة الجبرية التي سادت العالم الإسلامي، فيرى إقبال أن مرجعها إلى ما عرفه تاريخ المسلمين من أنظمة الحكم الجائرة، وإلى تأثير الفلسفة التي طبعت النظام الكوني بالسببية المفضية إلى اعتبار العلة الأولى في إرادة الله وعنها يصدر كل شيء. فالمادية العملية التي ظهرت عند أمراء دمشق من بني أمية النهازين للفرص، احتاجت إلى سند يستندون إليه في سوء صنيعهم بكربلاء فقالت بقدر الله – يروى أن معبد الجهني قال للحسن البصري: إن بني أمية يسفكون دماء المسلمين ويقولون إنما تجرى أعمالهم على قدر الله تعالى. فأجابه الحسن أنهم أعداء الله، وأنهم مفترون. وهكذا نشأ – على الرغم من معارضة علماء الدين في الإسلام معارضة صريحة – القول بالقدر[٣٣]

---

٣٣ « تجديد الفكر الديني في الإسلام » لإقبال ص ١٢٥-١٢٧ «محمد إقبال مفكرا إسلاميا» لمحمد الكتاني ص ٨٣-٨٤

مناقشة رأيه هذا في القدر

يبدو أن إقبالا قد حاول في تفسيره للقضاء والقدر أن يوفق بين طرفي الجبر والاختيار. فبكونه مسلما مؤمنا بالله تعالى وبقدره، لم يستطع أن ينكر قدر الله وقضاءه إطلاقا، ولكنه حين رأى أن القول بقدر الله والاتكاء عليه، قد دفع المسلمين خلال القرون الأخيرة، إلى ترك العمل والكفاح في حياتهم، وإلى الفشل في مقاومة التحديات التي واجهت العالم الإسلامي منذ قرون عديدة، ورأى كيف أن المستعمرين المستبدين استغلوا هذه النزعة وكيف انتهزوا هذه الفرصة لنهب الشعوب المتمسكة بهذا المبدأ، حاول أن يفسر عقيدة القضاء والقدر تفسيرا يستطيع أن يوفق به بين الاعتقاد بقضاء الله تعالى، وبين كون الإنسان حرا مختارا في فكره وعمله، فرأى أن عملية تقدير الله تعالى لا تقوم بالأشياء والنفوس من خارجها، بل تأتي من داخل إمكانياتها، ولكنه في تفسيره لذلك قد يندفع أحيانا إلى القول: بكون واجب الوجود تعالى موجبا في إرادته وأعماله، كما يزعم الفلاسفة، وأحيانا إلى القول: بعدم وجود قضاء سابق من عند الله تعالى، قال:

«لا شك في أن ظهور ذوات لها القدرة على الفعل التلقائي، ومن ثم يكون فعلها غير متنبأ به، يتضمن تحديدا لحرية الذات المحيطة بكل شيء.

ولكن هذا التحديد لم يفرض على الذات الأولى من خارج، بل نشأ عن حريتها الخالقة التي شاءت أن تصطفي بعض الذوات المتناهية لتقاسمه في الحياة والقوة والاختيار» ٣٤

والواقع أن إقبالا ينزع إلى القول بقدر الإنسان وكونه حرا مختارا في سلوكه وتصرفه، كما ذهب إليه المعتزلة، فهو معتزلي النزعة في هذا الأمر.

وقد أخطأ في رأيه أن القول بقدر الله تعالى بدأ في الإسلام أيام بني أمية، فإن ذلك إنكار لبعض نصوص الكتاب والسنة الصريحة. ولعل الصحيح أن استغلال هذا المبدأ بدأ في تلك الأيام. وكذلك أخطأ إقبال في فهم أن بعض الذوات المتناهية مشاركة للذات اللامتناهية، في الخلق والاختيار، وقد استدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ

---

٣٤ « تجديد الفكر الديني في الإسلام » لإقبال ص ٩٤

اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٤] فالخالقون في رأيه أكثر من واحد، والله تعالى أحسنهم. ويرجع هذا الخطأ إلى عدم معرفته أسلوب اللغة العربية جيدا وعدم إمعان الدراسة في ضوء الآيات الأخرى مثل قوله تعالى: ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤] فالآية صريحة في حصر الخلق والأمر على الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ [فاطر:٣]

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ [فاطر:٤٠] ... وأمثالها من الآيات

ولم ينكر إقبال مبدأ القضاء والقدر على الإطلاق فإنه قد أوضح في العديد من المواضع أن الذات نفسها بين اختيار وجبر، ولكنها إذا قاربت الذات المطلقة، نالت الحرية الكاملة. والحياة جهاد لتحصين الاختيار ومقصدا لذات أن تبلغ الاختيار بجهادها، فإذا قاربت الذات المطلقة نالت الحرية الكاملة[٣٥]

ويرى إقبال كذلك أن العبد ينال الحرية والاختيار، متقربا إلى الله تعالى بأداء الصلاة وامتثال أوامره تعالى. وقد أريد بتعيين مواقيت الصلاة في كل يوم تخليص النفس من آثار الآلية الموجودة في النوم والعمل. فالصلاة في الإسلام خلاص للنفس ينقذها من الآلية إلى الحرية[٣٦]

وأوضح إقبال وجهة نظره تجاه مسألة القضاء والقدر والاختيار والجبر ضمن شعره في عدة مواضع. منها ما قاله على لسان الحكيم المريخي ضمن ديوان «جاويد نامه» حيث يتساءل: «زنده رود» (إقبال) الحكيم المريخي عن أن السائل والمحروم بقضاء الله وقدره، والحاكم والمحكوم بقضاء الله وقدره. وليس من خالق للقدر سوى الله تعالى، فلا ينفع تدبير للخلاص من القدر ولا يغني منه حذر. فيرد الحكيم المريخي عليه بقوله:

«إنك مخطئ تماما في فهم القدر. إن عليك لا أن ترضى فحسب بقدر الله، بل تطلب المزيد منه. فادع الله أن يحكم بقدر آخر إذا رمى قلبك بفعل قدر واحد، فإنك إذا طلبت قدرا جديدا، كان ذلك أمرا مشروعا تماما، إذ لا نهاية لأقدار الله تعالى. حقا

---

٣٥ «محمد إقبال مفكرا إسلاميا» لمحمد الكتاني ص ٨٥

٣٦ « تجديد الفكر الديني في الإسلام » لإقبال ص ٩٤

لقد فات أهل الأرض الشيء الكثير، لأنهم لم يعرفوا المعنى الدقيق للقدر، فأضاعوا بذلك قيمتهم الذاتية (نقود الذات) التي يمكنهم بها أن يتعاملوا مع الكون من ناحية ومع الخالق من ناحية أخرى. فالقدر لا يعني أن يصبح الإنسان مجبرا جبرا خالصا شأنه في ذلك شأن الجماد والنبات، فإن هذه السلبية طبيعة الفطرة الإنسانية.

أأقول لك سر القدر؟ إن هذا السر الدقيق تنطوي عليه جملة واحدة: إذا غيرت نفسك سيتغير هو الآخر، فلقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١]

ثم يضرب الحكيم المريخي بضعة أمثلة لتوضيح هذه القضية الدقيقة، فيقول:

كن ترابا يهبك القدر الرياح، كن حجرا يقذف بك الزجاج. إذا كنت قطرة من الندى فالسقوط قدرك، وإذا كنت محيطا من المحيطات فالثبات قدرك».

ويستطرد الحكيم قائلا:

«ربما ألقى في روعك أن القدر حكم على بعض الناس أن يكدحوا طيلة حياتهم، دون أن يصلوا في النهاية إلى تكوين الثروات، وأنه حكم بأن يحصل البعض الآخر على كنوز وثروات طائلة دون جهد يذكر...إذا كانت هذه عقيدتك أيها الغافل، فإنها تؤدي بنا إلى القول بأن المحتاج سيظل أبدا أكثر احتياجا، ولن يصبح أي محتاج وفقير ثريا أو غنيا. فتبا لعقيدة تظل بك حتى تنام وما تزال تبقيك في نوم عميق. أهذا دين أم سحر وخرافة؟ أهذا دين أم حبة أفيون؟».

ومنها قوله ضمن ديوان رسالة المشرق:

«لا يمكن الحكم بأنني مختار أو مجبر، فإنني تراب حي لا أزال أتقلب وأتحرك».

ومنها قوله ضمن منظومة «حديقة الأسرار الجديدة»:

«لقد كان من قول قائد معركة بدر (يعني الرسول ﷺ) الحق أن العبد حر من جهة ومجبر من جهة. فالإيمان بين الجبر والقدر».

وقد عد أبو عمران الشيخ إقبالا ثالث ثلاثة ممن سعوا إلى النهل من الفكر الاعتزالي العقلاني، والدعوة إلى الحرية الإنسانية وما هؤلاء الثلاثة الذين سعوا إلى إحياء

روح الفكر الاعتزالي مع مطلع القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين سوى جمال الأفغاني ومحمد عبده ومحمد إقبال[٣٧]

البعث وخلود النفس لدى إقبال [٣٨]

يرى إقبال عن المصير الإنساني أن فكرة الإسلام الكلية عن الإنسان تؤكد البعث والخلود، إلا أن الحياة في هذه الدنيا هي التي تهيئ للإنسان مجال العمل من أجل تلك الغاية. وما الموت إلا ابتلاء نشاط يعقبه البعث. وكان على إقبال أن يواجه مشكلة «البعث» ما دام قد انتهى إلى اعتبار النفس حقيقة قائمة، أو جوهرا روحيا يجاهد جهادا موصولا إلى اكتساب الوحدة والتكامل والحرية والخلود. فيقول في شرح تلك الفكرة:

إن النهاية أي انقضاء الأجل ليس بلاء: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً﴾ [مريم:٩٣-٩٥]

وهذا أمر بالغ الأهمية ينبغي أن يفهم على وجهه الصحيح...فالإنسان أو الذات المتناهية – بشخصيته المفردة التي لا يمكن أن يستعاض عنها بغيرها، سيقف بين يدي الذات الغير متناهية، ليرى عواقب ما أسلف من عمل وليحكم بنفسه على إمكانيات مصيره: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ [الإسراء:١٣-١٤] – فأيا كان المصير النهائي للإنسان، فإنه لا يعني فقدان فرديته. والقرآن لا يعد التحرر التام من التناهي أعلى مراتب السعادة الإنسانية، بل «جزاؤه الأوفى» هو في تدرجه في السيطرة على نفسه، وفي تفرده وقوة نشاطه بوصفه روحا، حتى أن منظر الفناء الكلي الذي يسبق يوم الحساب مباشرة، لا يمكن أن يؤثر في كمال اطمئنان الروح التي اكتملت نموا: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨]

---

٣٧ «محمد إقبال فكره الديني والفلسفي » لمحمد العربي بو عزيزي ص ٤١٢-٤١٣ دار الفكر

٣٨ انظر رسالة الخلود ترجمة جاويد نامه للدكتور محمد السعيد جمال الدين ص ١٩٥-١٩٨

ومن يكون أولئك الذين ينطبق عليهم هذا الاستثناء، إلا الذين بلغت أرواحهم منتهى القوة. فالإنسان في نظر القرآن متاح له أن ينتسب إلى معنى الكون وأن يصير خالدا... إن كائنا اقتضى تطوره ملايين السنين ليس من المحتمل إطلاقا أن يلقى به كما لو كان من سقط المتاع. وليس إلا من حيث هو نفس تتزكى باستمرار، إذ يمكن أن ينتسب إلى معنى الكون: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس:٧-١٠]

وكيف يكون تزكية النفس وتخليصها من الفساد؟ إنما يكون ذلك بالعمل: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك:١-٢] فالحياة تهيئ مجالا لعمل النفس، والموت هو أول ابتلاء لنشاطها المركب. وليست هناك أعمال تورث اللذة، وأعمال تورث الألم، بل هناك أعمال تكتب للنفس البقاء أو تكتب لها الفناء. فالعمل هو الذي يعد النفس للفناء أو يكيفها لحياة مستقبلية. ومبدأ العمل الذي يكتب للنفس البقاء هو احترامي للنفس فيّ وفي غيري من الناس. فالخلود لا ننالة بصفته حقا لنا، وإنما نبلغه بما نبذل من جهد شخصي.

والبعث إذن ليس حادثا يأتينا من خارج. بل هو كمال لحركة الحياة في داخل النفس. وسواء أكان البعث للفرد أم للكون، فإنه لا يعدو أن يكون نوعا من جرد البضائع أو الإحصاء لما أسلفت النفس من عمل، وما بقيت أمامها من إمكانيات.

يجنح إقبال إلى تأويل حدوث البعث تأويلا لا يخلو من مباينة لما عليه حقيقته في التصور الإسلامي، فهو يقول: «على أنه لا مفر للنفس من أن تكافح كفاحا موصولا حتى توفق إلى التمسك وإلى الفوز بالبعث»[٣٩]

وعلى ذلك الأساس فالبعث ليس حادثا يأتينا من الخارج. بل هو كمال لحركة الحياة في داخل النفس كما يصرح إقبال.

---

٣٩ « تجديد الفكر الديني في الإسلام » لإقبال ص ١٣٨

وتبدو مباينة وجهة نظر إقبال للتصور الإسلامي للبعث بوضوح في قوله «وسواء أكان البعث للفرد أم للكون، فإنه لا يعدو أن يكون نوعا من جرد البضائع أو الإحصاء لما أسلفت النفس من عمل، وما بقيت أمامها من إمكانيات» ٤٠

الجنة والنار عند إقبال حالتان لا مكانان

«أما الجنة والنار فهما حالتان، لا مكانان، ووصفهما في القرآن تصوير حسي لأمر نفساني أو لصفة أو حال. فالنار في تعبير القرآن ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ [الهمزة:٦-٧] هي إدراك أليم لإخفاق الإنسان لوصفه إنسانا. أما الجنة فهي سعادة الفوز على قوى الانحلال. وليس في الإسلام لعنة أبدية. ولفظ الأبدية الذي جاء في بعض الآيات وصفا للنار، يفسره القرآن نفسه بأنه حقبة من الزمان ﴿لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً﴾ [النبأ:٢٣]، والزمان لا يمكن أن يكون مقطوع النسبة إلى تطور الشخصية انقطاعا تاما. فالخلق ينزع إلى الاستدامة، وتكيفه من جديد يقتضي زمانا. وعلى هذا فالنار كما يصورها القرآن ليست هاوية من عذاب مقيم يسلطه إله منتقم. بل هي تجربة للتقويم، قد تجعل النفس القاسية المتحجرة تحس مرة أخرى بنفحات حية من رضوان الله. وليست الجنة كذلك إجازة أو عطلة. فالحياة واحدة ومتصلة، والإنسان يسير دائما قدما، فيتلقى على الدوام نورا جديدا من الحق غير المتناهي الذي هو ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩]

ومن يتلقى نور الهداية الإلهية ليس متلقيا سلبيا فحسب، لأن كل فعل لنفس حرة، يخلق موقفا جديدا، وبذلك يتيح فرصا جديدة تتجلى فيها قدرته على الإيجاد» ٤١

لقد جانب إقبال الحقيقة الدينية المتعارف عليها في البعث والخلود في بعض الجزئيات، فهو مثلا قد جعل من البعث فترة «لجرد البضائع»، وجعل الدار الآخرة موصولة بالدار الدنيا في حياة الإنسان، وأنه يمكن للمرء بعد موته أن يواصل عمله لمزيد من استكمال نموه النفسي وكماله الروحي، وهذا ما لا يقر به الإسلام الذي يرى الدنيا

---

٤٠ «محمد إقبال فكره الديني والفلسفي» ص ٤٤٢

٤١ «تجديد الفكر الديني في الإسلام» ص ١٤٠-١٤٠، و «الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي» للدكتور محمد البهي ص ٣٩٨-٤٠٠ مكتبة وهبة بمصر

دار ابتلاء وامتحان، وهي وحدها دار فرصة العمل، وبموت الإنسان ينقطع عمله. والآخرة دار قرار وسكون وانقطاع عن العمل وجزاء عما قدم الإنسان في الحياة الدنيا»[٤٢]

يقول الدكتور خليل الرحمن عبد الرحمن في كتابه «محمد إقبال موقفه من الحضارة الغربية» ص ١٩٧-١٩٩:

قد أخطأ إقبال في تفسيره لقضية البعث والخلود خطأين أساسيين:

أولا: أنه رأى أن الجنة والنار حالتان لا مكانان، ووصفهما في القرآن تصوير حسي لأمر نفساني أو لصفة أو حال. وذلك رأي يعارض ما جاء به الكتاب والسنة. فإن الجنة والجحيم مكانان محسوسان، وليسا نفسيين فحسب، على ما أجمعت عليه الأمة سلفا وخلفا، وعلى ما يشهد بذلك كثير من الآيات والأحاديث، مثل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق:٣٠-٣١] وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر:٢٧-٣٠]

ثانيا: إنه فسر الخلود والأبدية بحقبة من الزمن، تمنح النفس بعدها فرصة أخرى لاستئناف نشاطها وكفاحها، وليس في الإسلام، على ما يراه هو لعنة أبدية، فالنار ليست هاوية من عذاب مقيم بل هي تجربة للتقويم، قد تجعل النفس القاسية تحس مرة أخرى بنفحات حية من رضوان الله...إلخ. وهذا تفسير يخالف كذلك إجماع الأمة، كما يعارض نصوص الكتاب والسنة الصريحة. فإن الآخرة ليست دار عمل وكفاح للنفس وإنما هي دار جزاء على أعمالها في الدنيا، فيما ينص الكتاب والسنة. يقول الدكتور محمد البهي بهذا الخصوص:

«يلاحظ على تفكير إقبال أنه في محاولته شرح استمرار العالم، أو شرح خلوده وبقائه يرتفع في هذا الشرح عن المستوى الديني الذي يصوره الإسلام نفسه. وبذلك يبعد في تفسير النصوص التي استعان بها، عن مدلولاتها الطبيعية التي تلائم هذا المستوى

---

٤٢ «محمد إقبال فكره الديني والفلسفي» ص ٤٤٥

.. فإذا جعل البعث فترة «لجرد البضائع»، وربط الدار الآخرة بالدنيا في حياة الإنسان، فإنه يثير تساؤلا عن (التكليف) من قبل الشرع ومدته، أهو في الدنيا والآخرة معا؟ وتفسيره الخلود في النار عندئذ في قوله تعالى ﴿خالدين فيها﴾ بأنه حقبة وفترة ما، يعطى بعدها الإنسان فترة أخرى للبقاء، أو للعمل يدعو لبقاء الإنسان خلوده – يرشح أن الإنسان في نظر إقبال مكلف في الدارين معا... ولكن الإسلام ينظر إلى الدنيا على أنها دار ابتلاء وامتحان، وينظر إلى الآخرة على أنها دار قرار وسكون، أي دار ينقطع فيها الامتحان والاختيار..»[٤٣]

ويقول سيد قطب – رحمه الله – منبها إلى أن دفعة الحماسة لمقاومة انحراف معين، قد تنشئ انحرافا آخر:

«... أراد (إقبال) أن ينفض عن الفكر الإسلامي وعن الحياة الإسلامية ذلك الضياع والفناء والسلبية، كما أراد أن يثبت للفكر الإسلامي واقعية (التجربة) التي يعتمد عليها المذهب التجريبي ثم المذهب الوضعي! ولكن النتيجة كانت جموحا في إبراز الذاتية الإنسانية، اضطر معه إلى تأويل بعض النصوص القرآنية تأويلا تأباه طبيعتها. كما تأباه طبيعة التصور الإسلامي. لإثبات أن الموت ليس نهاية التجربة، ولا حتى القيامة فالتجربة والنمو في الذات الإنسانية مستمران أيضا، عند إقبال بعد الجنة والنار. ومع أن التصور الإسلامي حاسم في أن الدنيا دار ابتلاء وعمل، وأن الآخرة دار حساب وجزاء. وليست هنالك فرصة للنفس البشرية للعمل إلا في هذه الدار. كما أنه لا مجال لعمل جديد في الدار الآخرة بعد الحساب والجزاء»[٤٤]

ومما يبدو أن إقبالا في رأيه هذا متأثر تأثرا ما بفكرة التناسخ لدى الهندوس وبنظرية التطور الدائم المستمر لدى «نيتشه»، مع أنه يؤمن بانفصال الدارين، الدنيا والآخرة إيمانا لا غموض فيه ولا شك، وذلك واضح من كتاباته وشعره. وقد تراجع إقبال عن

---

٤٣ «الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي» للدكتور محمد البهي ص ٤٢٥ مكتبة وهبة بمصر

٤٤ «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته » لسيد قطب، دار الشروق ط ١٩٨٠ ص ٢٣

رأيه هذا في آخر حياته على ما شهد به الأستاذ المودودي بأنه عاد لصحيح العقيدة في أيامه الأخيرة[٤٥]

مفهوم التجديد عند إقبال

«إن العمل العظيم الذي أداه الدكتور محمد إقبال في مجال الإصلاح له قيمة كبرى لا ينساها التاريخ الإسلامي، والعمل المهم الذي أنجزه محمد إقبال هو أنه أعلن حربا لا هوادة فيها ضد الغرب وحضارته المادية، فقد كان الرجل الوحيد في عصره الذي لا يدانيه أحد في تعمقه في فلسفة الغرب ومعرفته بحضارته وحياته، فلما نهض يفند فلسفته وأفكاره المادية بدأ يذوب سحر الحضارة الغربية الذي كان يبهر القلوب ويستولي على النفوس»[٤٦]

بهذه الكلمات وصف الأستاذ أبو الأعلى المودودي جهود إقبال (١٨٧٧-١٩٣٨م) في مجال الإصلاح والتربية وهي شهادة لها وزنها من رجل عاصره وعرفه. ويضيق نطاق هذه الدراسة عن تعداد إصلاحات إقبال، إنما نعرض هنا لأحد كتبه الذي لا يذكر اسم إقبال في العالمين العربي والغربي إلا ويقترن به. ذلك الكتاب الذي كان في الأصل ست محاضرات ألقاها عام (١٩٢٨م) في الجامعات الهندية بطلب من الجمعية الإسلامية في (مدارس) وجمعت في كتاب باللغة الإنجليزية بعنون (Reconstruction of religious thought islam) وترجم إلى العربية بعنوان «تجديد الفكر الديني في الإسلام» فهذا الكتاب في بعض محتوياته يتناقض ويهز الصورة التي رسمها المودودي لإقبال.

فهو في بعض فقرات الكتاب يحبذ صراحة تلك السرعة الكبيرة التي يتجه بها المسلمون نحو الغرب، بعد أن ظل التفكير الديني راكدا خلال القرون الخمسة الأخيرة، ويرى أنه لا غبار على هذا الاتجاه، لأن الثقافة الأوروبية في جانبها العقلي ليست إلا ازدهارا لبعض الجوانب الهامة في ثقافة الإسلام، ورغم أنه أضاف أنه يخشى أن ينخدع

---

٤٥ انظر إقباليات للمودودي ص ٣٣

٤٦ مجلة البعث الإسلامي – العدد الرابع – المجلد السادس عشر شوال ١٣٩١هـ ص ١٥

المسلمون بالمظهر الخارجي البراق للثقافة الأوروبية ويعجزوا عن إدارك كنهها وحقيقتها[٤٧] إلا أنه لم يخف إعجابه البالغ بالإصلاحات التركية التي لا يماري أحد أنها كانت حركة تغريب وقعت فيما يخشاه إقبال نفسه، وهو الانبهار بالمظهر الخارجي للحضارة الغربي، ولكن إقبال كان يعتبرها حركة (اجتهاد) لإعادة بناء الشريعة من جديد على ضوء الفكرة والخبرة في العصر الحديث، ويصفها بأنها أكثر اتفاقا مع روح الإسلام[٤٨]

كلام لا يقبل مطلقا من إقبال: ثناؤه على ما فعله أتاتورك وأقزامه

ويشيد بالطريقة التي يمارس بها التركي (الاجتهاد) في قضاياه السياسية والدينية مستوحيا على النحو الذي تفعله حقائق التجربة وحدها، لا التفكير الفلسفي المدرسي لفقهاء عاشوا وفكروا تحت ظلال أحوال من الحياة متباينة[٤٩]

ويقول: إن نهضة الإسلام المرتقبة لابد أن تحذو حذو المثال التركي وأن تفعل ما يفعله الترك فتعيد النظر في تراث الإسلام العقلي[٥٠]

ويستطرد للقول: إن معظم الأمم الإسلامية اليوم يكررون القول بالقيم التي قال بها السلف بطريقة آلية، أما تركيا فهي الأمة الإسلامية الوحيدة التي نفضت عن نفسها سبات العقائد الجامدة، واستيقظت من الرقاد الفكري وهي وحدها التي نادت بحقها في الحرية العقلية، وهي وحدها التي انتقلت من العالم المثالي إلى العالم الواقعي، وهذه النقلة وهذه الحياة الجديدة الفسيحة الأرجاء المفعمة بالحركة لابد أن تستحدث لتركيا مواقف توحي بآراء جديدة، وتقتضي تأويلات مستحدثة للأصول والمبادئ، تلك الأصول والمبادئ التي كانت لها قيمة نظرية فقط عند قوم لم يمارسوا الانفتاح[٥١]

من هذه الآراء تتكشف معالم التجديد الذي يدعو إقبال الأمم الإسلامية إليه، فالتغير والحركة والنمو الذي يصيب العالم الإسلامي من اتجاهه نحو الغرب، يقتضي إعادة

---

٤٧ «تجديد الفكر الديني في الإسلام» ص ١٤ والطبعة الإنجليزية ص ٧

٤٨ المصدر نفسه ص ١٨٠

٤٩ المصدر نفسه ص ١٨٢

٥٠ المصدر نفسه ص ١٧٦

٥١ المصدر نفسه ص ١٨٦

النظر في التراث وإعادة بناء الشريعة من جديد على ضوء الفكر والتجربة المعاصرة، واستحداث تأويلات جديدة للمبادئ والأصول. وهذه هي معالم العصرانية «modernism» بعينها فهل كانت تلك حقا هي أفكار إقبال؟ وهل كان حقا يدعو إلى هذا النوع من التجديد؟

تناقض إقبال

تصف (مريم جميلة) هذه الآراء بأنها «من الأخطاء الفكرية التي وجدت طريقها إلى مؤلفات محمد إقبال النثرية باللغة الانجليزية» وتقول:

«إن أسوأ ما في الأمر في العالم الذي يتكلم الإنجليزية – ينبغي أن تضاف العربية أيضا– والذي يجهل أشعاره بالأردية والفارسية يعتقد أن هذا الكتاب يمثل بدقة أفكار العلامة محمد إقبال، وتؤكد أن إقبال نفسه اعترف في آخر حياته أنها خطأ كبير، وتسوق مقتطفات من شعره تناقض الآراء التي طرحها في الكتاب، وتعضد مريم جميل أقوالها، برسالة شخصية بعثها إليها المودودي جاء فيها:

« ... ولكن محمد إقبال بكل عبقريته الشعرية، لم يكن ينجو من الأخطار، ولسوء الحظ فإن كتاباته لا تخلو كلية من المتناقضات، لقد كان إقبال يمر دوما بمراحل مختلفة للتطور العقلي أثناء حياته، ولم يستطع أن يكون فكرة صافية عن الإسلام إلا في السنوات الأخيرة من حياته، ففي السنوات الأولى من حياته تداخلت أفكار ومؤثرات غربية مع أفكاره الإسلامية»[٥٢]

ونمضي قدما في قراءات أخرى لفكر إقبال في كتابه «تجديد التفكير الديني في الإسلام». والكتاب في الأصل كتاب فلسفي وهو محاولة كما يقول عنه مؤلفه لإعادة بناء الفلسفة الإسلامية بناء جديدا آخذا بعين الاعتبار المأثور من فلسفة الإسلام، إلى جانب ما جرى على المعرفة الإنسانية من تطور في نواحيها المختلفة[٥٣]

ويبحث إقبال في هذا الكتاب المعرفة المكتسبة عن طريق التجربة الحسية، والمعرفة المكتسبة عن طريق ما يسميه التجربة الدينية (الصوفية)، ويقارن بين نوعي المعرفة هذين،

٥٢ «الإسلام بين النظرية والتطبيق» مريم جميلة ص ١٨٢-١٩٦

٥٣ «تجديد الفكر الديني في الإسلام» ص ٢

ويناقش أيضا حقيقة النفس وحريتها وخلودها والألوهية والنبوة وختم الرسالة ومبدأ التغير والحركة في الكون والمجتمع.

وأقدم مثالين يظهر بهما ما عند إقبال من نظرة عصرانية. ويطالعنا المثال الأول في تلك التأويلات التي يقدمها لبعض العقائد والتي تشابه تأويلات سيد خان والفلاسفة الأولين. يقول عن قصة هبوط آدم:

«وهكذا نرى أن قصة هبوط آدم كما جاءت في القرآن لا صلة لها بظهور الإنسان الأول على هذا الكوكب، وإنما أريد بها بالأحرى بيان ارتقاء الإنسان من الشهوة الغريزية إلى الشعور بأن له نفسا حرة قادرة على الشك والعصيان»[٥٤]

أما المثال الثاني للنزعة العصرانية عند إقبال فتظهر واضحة في الفصل الذي كتبه عن الاجتهاد وسماه «مبدأ الحركة في الإسلام»، ويقصد أن المبدأ الذي يواجه به الإسلام التغير والحركة هو الاجتهاد. ويعرف إقبال الاجتهاد ثم يقول: «وأصل الاجتهاد على ما أعتقد هو قول القرآن في آية مشهورة: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩] وهذا الاستدلال يكشف أن إقبال، لم يكن – آنذاك على الأقل– عميق المعرفة بالثقافة الإسلامية»[٥٥]

ويطرح إقبال في ذلك الفصل هذا السؤال الذي هو شغل العصرانية الشاغل: «... وأنتقل الآن إلى النظر فيما إذا كان تاريخ الشريعة الإسلامية وبناؤها يتبين فيهما إمكان تفسير الشريعة ومبادئها تفسيرا جديدا، وبعبارة أخرى الموضوع الذي أود أن أثير البحث فيه، هل الشريعة الإسلامية قابلة للتطور؟»

وعنده أن الإجابة على هذا السؤال تحتاج إلى جهد عقلي عظيم، ويرى أن العالم الإسلامي عليه أن يواجه هذا السؤال بالروح التي كان يواجه بها عمر مشكلات الدين ويصفه بأنه أول عقل ممحص مستقل في الإسلام ولا ريب عنده أن التعمق في دراسة كتب الفقه والتشريع الهائلة العدد لابد من أن تجعل الناقد بمنجاة من الرأي السطحي الذي يقول بأن شريعة الإسلام شريعة جامدة غير قابلة للتطور.

---

٥٤ «تجديد الفكر الديني في الإسلام» ص ٩٩

٥٥ انظر «الفكر الإسلامي الحديث» لمحمد البهي ص ٤٨٣

ثم يناقش تجديد أصول الفقه الإسلامي من أجل أن يتبخر الجمود المزعوم ويبدو للعيان إمكان حدوث تطور جديد.

تجديد أصول الفقه

إنه يرى أن القرآن هو الأصل للشريعة الإسلامية، وليس من شك في أن القرآن يقرر بعض المبادئ والأحكام العامة في التشريع، ولكن القرآن ليس مدون في قانون، فغرضه الأساسي هو أن يبعث في نفس الإنسان أسمى مراتب الشعور بما بينه وبين الله وبينه وبين الكون من صلات. على أن الأمر الجدير بالملاحظة في هذا الصدد هو أن القرآن يعتبر الكون متغيرا، ومن الواضح الجلي أن القرآن بما له من هذه النظرة لا يمكن أن يكون خصما للتطور، وأن المبادئ التشريعية في القرآن رحبة واسعة وأبعد ما تكون عن سد الطريق على التفكير الإنساني والنشاط التشريعي، وأن الرعيل الأول من الفقهاء اعتمدوا على هذه المبادئ واستنبطوا عددا من النظم التشريعية، على أن مذاهبهم مع إحاطتها وشمولها ليست إلا تفسيرات فردية، وهم لم يزعموا أبدا أن تفسيرهم للأمور واستنباطهم للأحكام هو آخر كلمة تقال فيها، وبما أن الأحوال قد تغيرت والعالم الإسلامي يتأثر اليوم بما يواجهه من قوى جديدة، فالرأي عنده «أن ما ينادي به الجيل الحاضر من أحرار الفكر في الإسلام من تفسير أصول المبادئ التشريعية تفسيرا جديدا، على ضوء تجاربهم وعلى هدي ما تقلب على حياة العصر من أحوال متغايرة هو رأي له ما يسوغه كل التسويغ».

ثم ينتقل إلى أحاديث الرسول المصطفى ﷺ التي هي الأصل الثاني العظيم للشريعة، وينقل رأي المستشرق (جولد زهير) بأن إخضاع الأحاديث للفحص الدقيق على ضوء القوانين المستحدثة في النقد التاريخي، يظهر أنها في جملتها لا يوثق بصحتها.

ثم يتناول بالبحث مسألة نعتبرها هامة، وهي أن الفرق بين الأحاديث التي تتضمن أحكاما تشريعية والأحاديث التي ليس لها طابع تشريعي... وحتى السنة التشريعية يرى أن يبحث عن مدى ما تضمنته من عادات كانت للعرب قبل الإسلام، فتركها الإسلام دون تغيير، وأخرى أدخل فيها النبي ﷺ تعديلا. وهل قبول النبي لها تصريحا أو ضمنا قد أريد بها أن تكون ذات صفة عامة في تطبيقها.

ويستشهد بأن أبا حنيفة لم يكن أحيانا يعتمد على هذه الأحاديث، وذلك في نظره موقف جد سليم، ثم يقول: «إذا رأى أصحاب النزعة الحرة في التفكير العصري، أنه من الأسلم ألا تتخذ هذه الأحاديث من غير أدنى تفريق بينها، أصلا من أصول التشريع، فإنهم يكونون بذلك قد نهجوا منهج رجل من أعظم رجال التشريع بين أهل السنة».

والإجماع عند إقبال الذي هو الأصل الثالث من أصول التشريع الإسلامي قد يكون من أهم الأفكار التشريعية في الإسلام، وهو يرى ضرورة انتقال حق الاجتهاد من الأفراد إلى هيئة تشريعية إسلامية، لأن ذلك هو الشكل الوحيد الذي يمكن أن يتخذه الإجماع في الأزمنة الحديثة، لأن هذا الانتقال يكفل للمناقشات التشريعية الإفادة من آراء قوم من غير رجال الدين ممن يكون لهم بصر نافذ في شئون الحياة.

وهو يتوقع لمثل هذه الهيئة التشريعية أن تخطئ خطأ فاحشا في تفسير الشريعة، لأنها قد تتألف من رجال ليست لهم دراية بوقائع التشريع الإسلامي، ولكنه يستبعد أن يكون الحل تأليف لجنة دينية مستقلة، تكون لها سلطة الرقابة ويرى أن العلاج الوحيد الناجح للتقليل من وقوع الأخطاء في التأويل، هو إصلاح نظام التعليم القانوني وتوسيع مداه.

ثم يتسائل عن إجماع الصحابة، وهل إذا انعقد إجماعهم على أمر ما يكون ملزما للأجيال التي بعدهم؟ ويخلص إلى أن القول الجريء في ذلك هو أن الأجيال اللاحقة ليست ملزمة بإجماع الصحابة.

والأصل الرابع من أصول الفقه هو القياس ويرى إقبال أن القياس كان في الأصل ستارا يتوارى خلفه الرأي الشخصي للمجتهد، وأن النقد الدقيق الذي وجهه لمبدأ القياس كان يهدف إلى كبح الميل إلى إيثار النظر المجرد والفكرة التي تدور في العقل على الأمر الواقع، على أن المنتقدين أنفسهم وقعوا في خطأ آخر، وهو أنهم رغم إدراكهم ما للواقع من شأن، إلا أنهم في الوقت نفسه جعلوه ثابتا إلى الأبد وقصروا نظرهم على (السابقات) التي وقعت بالفعل في أيام النبي وصحابته، ثم يدعو إلى إحسان فهم وتطبيق مبدأ القياس وهو أنه حق طليق في حدود النصوص الملزمة».[٥٦]

---

٥٦ «مفهوم تجديد الدين» لبسطامي محمد سعيد ص ١٣٥-١٤١دار الدعوة - الكويت

ملاحظات على آراء إقبال حول الاجتهاد

وبعد أن استعرضنا آراء إقبال حول الاجتهاد والتشريع ومصادره الرئيسية المتفق عليها، يجب أن نعلق على نقاط الضعف في هذه الآراء بما رأيناه صوابا وحقا في ميزان التعليم الإسلامي الصحيح فنقول:

أولا: ليست مشكلة الاجتهاد النظري مشكلة أساسية كما ظن إقبال بل المشكلة الأساسية هي العقبات القائمة في طريق تطبيق أحكام الإسلام وتحكيم الشريعة وتنفيذها في الأوضاع الحالية. فإن الغرب بجميع وسائله وعملائه وكامل سلطته ودهائه يحارب أي محاولة تقوم لتطبيق الشريعة ويفشلها، فليس الإسلام في حاجة اليوم إلى مجتهد نظري أو مقنن منطقي أكثر مما هو في حاجة إلى ما يقوم بتنفيذ الشريعة وتطبيق الأحكام المدونة في القرآن وكتب السنة والفقه. فإقبال يبدو متأثرا إلى حد بالغ بدعاية المستشرقين الكذابين بأن الفقه الإسلامي لا يستطيع أن يتكفل بحاجات المجتمع المعاصر المتقدم في مجالات الاقتصاد والاجتماع والسياسة وغيرها.

ثانيا: لو فتح المجال للاجتهاد والاجتماع، كما يراه إقبال، بغض النظر عن الشروط والصلاحيات التي لابد من توفرها في المجتهد عند الفقهاء المتقدمين لكان ذلك فتحا لباب الفتنة والفساد، فيأخذ كل متبع لهواه أو عميل لأعداء الإسلام يدعي لنفسه حق الاجتهاد ويبدي رأيه الفاسد باسم الاجتهاد والإصلاح، ويصير الدين عرضة للأهواء والفتن. فلابد من الإصرار على توفر شروط الفقهاء عند من يدعي الاجتهاد. فالعودة إلى الاجتهاد مطلوبة، ولكن بنفس الشروط وبنفس الروح التي اجتهد بها فقهاؤنا القدامى الكبار.

ثالثا: ما يراه إقبال حول السنة من أن بعضها ذو صفة عامة في تطبيقها والأخرى ليست كذلك، وحول الأمور التي أبقاها الإسلام دون تغيير، من تقاليد الجاهلية وكونها تعتبر تشريعا أم أمورا محلية، فهذا رأي خطير يفتح المجال للفتنة والفوضى والفساد، لأن كل شيء لم يغيره الإسلام من تقاليد الجاهلية عاد إسلاميا مصطبغا بصبغة الإسلام، فإن الشريعة التي تركها لنا رسول الله ﷺ إسلامية من أولها لآخرها. فإذا فتح المجال للتفرقة بين أمور الشريعة بأن بعضها من عادات العرب وتقاليد الجاهلية والأخرى

ذات طابع إسلامي، وأن بعضها ذو طبيعة وقتية وبعضها الآخر ذو صفة دائمة، يكون ذلك مدخلا للفتن والأهواء والفساد على ما هو واضح فإنه لا يمكن وضع حد لهذا التمييز والتفرقة.

رابعا: ردد إقبال ضمن هذا الباب غير مرة، كلمة الجمهورية والديموقراطية الروحية، فإذا كان قصده بذلك التآخي والتعاون الإسلامي وتشاور علماء الإسلام في أمور دينهم ودنياهم لكان من الأفضل أن يستخدم لذلك لفظ الشورى، لأن الشورى لها أصل ومكانة في الإسلام، وإذا قصد به تقليد أساليب الغرب في التقنين ووضع الأنظمة فذلك شيء ليس له مجال في الإسلام، فإن البشر ليس لهم حق في وضع القوانين. مهما بلغ عددهم ومهما تطورت علومهم.

وقد عارض هذه الفكرة إقبال نفسه وفندها في معظم شعره ومؤلفاته فإنه كشف زيف الديموقراطية الغربية في مواضع لا تكاد تحصى، وقال في موضع أن مخ مائتي حمار لا تساوي مخ إنسان واحد.

وأخيرا فإن إقبالا بعرضه هذا البحث قد فتح مجالا واسعا أمام طلبة الشريعة الإسلامية وعلمائها ليفكروا فيما يواجه العالم الإسلامي من المشاكل والتحديات في العصر الحاضر، وما سيواجهه في المستقبل، وما يتحملونه من المسؤوليات تجاه ربهم ودينهم وأمتهم. ولا حاجة بنا أن نسيء الظن في كون إقبال صادقا، ولكنه متأثر بأفكار المستشرقين من جهة، ويبدو قليل المعرفة بروح الشريعة الإسلامية الخالصة من جهة أخرى.

يقول الدكتور محمد البهي في هذا الشأن:

«ويلاحظ على إقبال أنه يقف في تفسيره لبعض آيات القرآن عند الحد العامي لمدلول اللفظ...وقد يذهب في تفسير بعض آيات أخرى مذهبا علميا أو فلسفيا ويبعد المعنى عن أن يكون في مستوى توجيه الإنسان المتوسط...وحسن ظنه بالمستشرقين جعل فيه نقطة ضعف أخرى، وهي ثقته فيما يكتبون وتقبله له دون امتحان لما يكتبونه».[٥٧]

٥٧ «الفكر الإسلامي الحديث» لمحمد البهي ص ٤٢٥-٤٢٦-٤٣٧

ويحمد لإقبال تحفظه حين يقول:

«إننا نرحب من أعماق قلوبنا بتحرير الفكر في الإسلام الحديث، ولكن ينبغي لنا أن نقرر أيضا أن لحظة ظهور الأفكار الحرة في الإسلام هي من أدق اللحظات في تاريخه.. فحرية الفكر من شأنها أن تنزع إلى أن تكون من عوامل الانحلال.. أضف إلى هذا أن زعماء الإصلاح في الدين والسياسة قد يتجاوزون في تحمسهم لتحرير الفكر الحدود الصحيحة للإصلاح إذا انعدم ما يكبح جماح حميتهم الفتية..»[٥٨]

رأي بعض معاصري إقبال فيه

- قال مولانا أبو الكلام أزاد عند وفاة إقبال: «إن الهند الحديثة لم تستطع إنتاج شاعر عظيم مثله، وإن وفاته خسارة للشرق بأكمله، وليست الهند فحسب»
- وقال الشيخ أبو الأعلى المودودي ضمن مقابلة مع مندوب مجلة (سيارة) التي نشرت خلال فبراير – مارس (١٩٧٨م):

«إنه يوجد لدى إقبال تطور مستمر في الأفكار، فنجد مثلا أنه يؤيد مصطفى كمال ويظهر أنه رجل عبقري مثالي، ولكن عندما رأى تفاصيل الأحوال، عدل رأيه. وفي الحقيقة هناك ثلاثة أطوار في حياة إقبال، وقد عاد قلبه وفكره مسلما كاملا في الطور الثالث والأخير من حياته»[٥٩]

- ويقول الأستاذ السيد أبو الحسن على الندوي تحت عنوان «صلتي بمحمد إقبال وشعره»: «أما بعد، فإني لا أعتقد في إقبال عصمة ولا قدسا ولا إمامة ولا اجتهادا في الدين... إنني أعتقد أن الحكيم السنائي وفريد الدين العطار والعارف الرومي[٦٠]، كانوا أرفع منه مكانة بكثير، في التأدب بآداب الشرع والجمع بين الظاهر والباطن، والدعوة والعمل، وقد كانت في محاضراته التي ألقاها في (مدارس) أفكار فلسفية وتفسيرات للعقيدة الإسلامية لا نوافقه عليها.. إنني لم أزل– والحق أحق أن يقال– في كل دور من

---

٥٨ «مفهوم تجديد الدين» ص ١٤١-١٤٢

٥٩ «إقباليات» للمودودي ترتيب سميع الله وخالد همايون ص ٣٣

٦٠ هذا الجانب الصوفي والثناء على رجال الصوفية الذين عندهم الأخطاء الكثيرة في اعتقادهم مما يعاب على الشيخ أبي الحسن الندوي يرحمه الله

أدوار حياتي وثقافتي معتقد أنه لا يزيد على أن يكون تلميذا من تلاميذ الثقافة الإسلامية النجباء الأذكياء، درسها دراسة مخلصة، وكان لا يزال في حاجة إلى التعمق والرسوخ فيها، والاستفادة من معاصريه الكبار. وكانت في شخصيته الكبيرة النادرة جوانب ضعف لا تتفق مع عظمته العلمية وعظمة رسالته وشعره لم يجد وقتا كافيا وجوا ملائما لإكمالها وتسديدها.

إن أجل ما أعتقده أن إقبال شاعر أنطقه الله ببعض الحكم والحقائق في هذا العصر، وأنه كان صاحب فكرة واضحة وعقيدة راسخة، عن خلود الرسالة المحمدية وعمومها، وعن خلود هذه الأمة وصلاحيتها للبقاء والازدهار، وعن كرامة المسلم، وأنه خلق ليقود ويسود، وعن تهافت المبادئ والفلسفات والدعوات التي ظهرت في هذا العصر، كالقومية الوطنية والشيوعية والرأسمالية ووجدت فيه من وضوح الفكرة وشدة الاقتناع والتحمس لها، والشجاعة في نشرها، وفي نقد هذه الفلسفات، ما لم أجده مع الأسف في كثير من رجال الدين لعدم اكتناههم بحقيقتها واطلاعهم على نواياها وأهدافها وأسسها وتاريخها.

وأخيرا لا آخرا، وجدته شاعر الطموح والحب والإيمان. وأشهد على نفسي أني كلما قرأت شعره جاش خاطري وثارت عواطفي، وشعرت بدبيب المعاني والأحاسيس في نفسي، وبحركة للحماسة الإسلامية في عروقي، وتلك قيمة شعره وأدبه في نظري»[٦١]

رجوع إقبال عن رأيه ومدحه أولا لمصطفى كمال أتاتورك

كان من رأي إقبال أن حركة التجديد – كما يزعمون– التي قام بها بعض الأتراك المحدثين – وفي مقدمة الدعاة لها الشاعر ضيا كوك آلب (١٨٧٥-١٩٢٤م) – هي حركة مثالية في إصلاح الفكر الديني في الإسلام، فقال: «وإذا كانت نهضة الإسلام أمرا واقعا – وأنا أعتقد أنها أمر واقع– فلابد من أن نفعل يوما ما فعله الترك، فنعيد النظر في تراثنا العقلي..»[٦٢]

---

٦١ «روائع إقبال» لأبي الحسن الندوي ص ٢٠-٢٢

٦٢ «تجديد الفكر الديني» لإقبال ص ١٧٦

فكان هذا رأيه حول الثورة القومية التركية التي نادى بها الشاعر ضيا ومصطفى كمال أتاتورك (١٨٨١-١٩٨٣م) ضمن محاضراته «تجديد الفكر الديني» التي نشرت في عام (١٩٣٠م)، بينما أنه نبه المسلمين كذلك في نفس المحاضرة إلى الأخطار التي يمكن حدوثها من حرية الفكر وعدم التقيد بأحكام الشريعة فقال:

«إنا نرحب من أعماق قلوبنا بتحرير الفكر في الإسلام الحديث [يعني الفترة الحديثة في حياة الأمة المسلمة] ولكن ينبغي لنا أن نقرر أيضا أن لحظة ظهور الأفكار الحرة في الإسلام هي أدق اللحظات في تاريخه، فحرية الفكر من شأنها أن تنزع إلى أن تكون من عوامل الانحلال، وفكرة القومية الجنسية – التي يبدو أنها تعمل في الإسلام العصري أقوى مما عرف من قبل– قد ينتهي أمرها إلى القضاء على النظرية الإسلامية العامة الشاملة التي تشربتها نفوس المسلمين من دين الإسلام»[٦٣]

كما أنه أخذ كذلك في نفس المحاضرة على دعوة الشاعر ضيا إلى المساواة بين الرجل والمرأة في الزواج والطلاق والميراث، فقال:

«أما فيما يتعلق بما ينادي به الشاعر التركي (ضيا) فإني أخشى أنه يبدو قليل العلم بقانون الأسرة في الإسلام، كما يظهر أنه لا يفهم المعنى الاقتصادي لقاعدة التوريث كما جاءت في القرآن»[٦٤]

وقد أعجب إقبال بمصطفى كمال أتاتورك وعلق أمالا كبيرة بعزمه وإقدامه كما يتبين ذلك من نشيده الذي يتضمنه ديوان (بيام مشرق) بعنوان «خطاب إلى مصطفى كمال باشا– أيده الله– !!»[٦٥]

ولكنه عندما عرف حقيقة هذه الثورة ودعاتها، تراجع عن رأيه السابق فقال على لسان سعيد حليم باشا، في ديوان «جاويد نامه» الذي نشر في (١٩٣٢م): «إن مصطفى كمال قد تغنى بالتجدد وقال: ينبغي أن تنسخ الشريعة الإسلامية وتمسح الآثار العتيقة. ولكن يا صاحبي لن تتجدد الحياة في الكعبة المشرفة إذا استوردت الأصنام من

---

٦٣ المصدر السابق ١٨٧

٦٤ المصدر السابق ص ١٩٤-١٩٥

٦٥ يوليو ١٩٩٢- بيام مشرق، ص ١٣٨

لاة ومناة إليها من أوروبا، فليس في قيثارة التركي (مصطفى كمال) لحن جديد فإن ما توهمه جديدا إنما هو نغمة تركتها أوروبا وراء ظهرها وأصبحت قديمة بالية لديها»[٦٦]

وكذلك استنكر إقبال أعمال مصطفى كمال في ديوان «ضرب الكليم» الذي نشر في عام (١٩٣٦م)، فقال: أنا شدوت حتى مزقت شقائق النعمان جيوبها وجدا، ونسيم الصبح لا يزال يطلب روضا ينضر أزهاره، لا مصطفى كمال ولا رضا شاه بهلوي مظهر لروح الشرق، فإنها تطلب الآن شخصية تظهر فيها:

جيب الشقائق من شدوي غدا مزقا ** ونسمة الصبح روضا تطلب الآنا

ما «مصطفى» أو «رضا» جلى حقيقتها ** فالروح في الشرق جسما تطلب الآنا[٦٧]

فعاد إقبال –وهذا حسن الظن– عن مدحه لأتاتورك الطاغية والعود أحمد.[٦٨]

جمع وترتيب

د/ خالد سعد النجار

alnaggar66@hotmail.com

---

٦٦ «جاويد نامه» ص ٦٦

٦٧ «ضرب كليم» ص ١٤٢

٦٨ من مصادر هذا البحث الإضافية

– محمد إقبال.. شاعر الهند والإسلام، محمد أبو مليح

– شاعر الشرق محمد إقبال.. وحوار الحضارات، عبد الفتاح قلعه جي